عبد العزيز مشري

في عشق «حتى»

رواية



«قالها يونس بن متّى..

أموت وفي نفسي شيء من «حتى»

أرجأ صاحبنا شهورا ثلاثة.. في كل مرة ؛ يرتّب فتافيته، ويهيئ أحواله للسفر، فبعد الاستعداد الكامل الأول.. رأى نفسه متردداً لسبب عجز عن تفسيره، وعاد من قبل أن يضع خطوته في طريق المطار، إلى البيت نادما على ضياع ما أنفقه من التهيؤ والترتيب لسفر لم يتم.

في الحالة الثانية، وبعد أيام تعب فيها للحصول على بطاقة إركاب، في طائرات الصيف المزدحمة إلى خارج البلد.. وجد في ذاته اندفاعه مبهمة، وقبولاً وافراً للسفر.

غير أنه بعد أن لَجّ به ضجيج المطار، واختلاط حركة الناس، والطوابير، ومفخمات الصوت، التي تهزه بالخوف والارتقاب، وبالبوابات الزجاجية العالية، والحقائب المضغوطة بحاجيات المسافرين وأحلامهم وهداياهم.. والموظفين ذوي البدلات المصممة على أبدانهم، والتي تبدو متذمرة غير لائقة بمن تعوّد الألبسة الفضفاضة.. إنها أشياء كثيرة، تملأ السمع والبصر، وتُحدث في النفس ارتباكاً، يحدث له في مثل هذه المناسبات النادرة.. أدت به جميع هذه العوامل التي قد لا تبدو مبررة.. إلى التراجع.. فرأى أن الحنين الجامح إلى البيت، يناديه بخفوت طفل للعودة.. فعاد.

اليوم..

منذ ليلة البارحة، لم يكن قد حدّث خاطره، بذلك المرعب، الذي يسميه كل الناس مع اختلاف دوافعهم ومشاعرهم بـ: السفر.

أعاد، على غير ترتيب، تجهيز ملابسه وأدوات سفره باختصار ؛

وخرج بعد الغداء إلى المطار، ناوياً للمرة الثالثة.

** ** **

قال له موظف، خاطبه دون نظرة:

- هل لديك حجز ؟

- لا.. ولكن..

وقاطعه:

- و.. لكن.. انتظر مع المنتظرين، حتى نهاية القائمة.

«القائمة».. قالها بجفاء دون أن يدري فعلها عند صاحبنا، وليكن الله في عونه على تمضية وقت الانتظار، لا يدري كيف يتحمله في رعب داخل الصالات الصقيلة، التي تضيف إلى مكبرات الصوت، وهي تنادي بالاستعداد للرحلات المتوالية إلى خارج الحدود، رعباً مجانياً (يا رب المذعورين والمغامرين)..حصل على مقعد، وحملت التذكرة وشام الإيذان بالركوب، لكن هذا لا يكفي.. قبل أن يعلن «ملاحو الطائرة» استعدادهم للإقلاع، لن يكون ثمة سفر.

كاد يسقط مراراً بجسمه بين أكتاف المتزاحمين، وضربات حقائبهم على جانبيه.. (لا بأس، هذا سفر، والأسفار مقرونة بالحقائب والمزاحمة والإيجاز.. إيجاز في كل حركة جارحة.. النظرة، الخطوة، والالتفاتة، الأيدي المرهونة بحوائجها المختصرة.. لا وقت لأي شيء، وكل شيء في غاية انفعاله، حتى الجواز الذي يمضي عليه زمن مركوناً في البيت، يأتي وقته الآن.. سريعاً قاسياً موجزاً).

** ** **

نفرت، بعد هدير مقلق، الطائرة، وهان قليلا عذاب صاحبنا، واستمع بترو إلى دعاء السفر، والإعادة من «الوعثاء وسوء المنقلب».

الآن.. يدرك لماذا كل هذه العناءات، التي يلفها الحذر والخوف، وتسكنها المغامرة.

الآن.. الآن فقط، يشاجر رغبته المؤجلة في السفر، ويخرج بجواب لا يعرفه أحدٌ من سكان الأرض غيره، فكم من الأمور الباهتة في عيون الآخرين، تلعب في حياتنا الخفية ما تلعبه أسباب المصائر!.

قعد صاحبنا كحقيبة محشوة بالآلام والرغبات والأحلام. حقيبة تتجاوز الأربعين من الكيلوجرامات في وزنها، وتشرف على الرقم ذاته في العمر من السنين.. حقيبة يانعة بكثافة غاياتها المشتبكة.. ستسلّم مع وافر اللهفة والاندفاع والحلم، إلى وجهها اللذيذ، وعناية ابتسامتها الياسمينية المستحبة.

جاء وقت المواجهة، وتهجا طويلاً ما يسمونه بـ«لحظة اللقاء».. (يا له من فعل تقليدي. ألا يمكن للتاريخ منذ الأزل استبداله بغير هذا المصطلح؟)

بقي يعابث دواخله في هذا الشأن، مفاوضاً الوقت بين ذاته، وبين شاب بدوي الهيئة واللسان، أجبرته به زمالة المقعد. كان (يُبرْقِط) كثيراً من الكلام المستهلك، في الأسفار الدنجوانية. سايره في كل شيء، وعندما وزعت البطاقات الاستجوابية، قبل الهبوط بوقت، كان لابد من نقل البيانات الشخصية المثبتة في جوازات مصطلح المسافرين. أخرج الشاب جوازين، ظهر في نظر صاحبنا أن أحدهما

لقريب له يجلس في الخلف، مع امرأة تصغره في السن بكثير، لا يلفت النظر فيها، سوى عينيها الغزاليّتين، الناطقتين في كل بدنها المنقبض داخل لفافته السوداء العريضة.

أخفى الشاب صورتها المطبوعة داخل الجواز، وكان صدر صاحبنا يضحك، ويمنعه حياؤه المبالغ من الالتفات.

قال الشاب ؛ ويداه تثرثران بحركات تدعم الكلام:

- زوجة الوالد.

- ....!

لم يكن هناك مناسبة لإحاطة الصاحب بهذه الإفادة، ولم يكن ليعنيه الأمر. التفت الشاب قائلاً، بعد مسيرة استنفدت في الحكي الذي لا حاجة إليه مقطعاً غير قصير من الوقت:

- طيب.. أنت تدرس في الجامعة، و إلا كيف ؟

- يعني..

- و.. رايح إجازة ؟

- إن شاء الله.

على ضوء تلك الافتراضية.. استمر الحديث، ولم يسأله صاحبنا عن قصده من السفر، ولا حتى عن اسمه، أو مكان نزوله، أو إقامته. صمتا.

عاد إلى همسات نبضه الذي لا يعلمه أحد، وحّدت جوانحه بمقابلتها، وقبلاً.. كيف يهيئ الوسيلة المناسبة للاتصال بها.

** ** **

المدينة التي سيحط بها أول وآخر وجهته.. لا يحبها كثيراً، ولا يدري لماذا يعود إليها، برغم نوايا القطيعة المتكررة، فهي من تلك المدن التي تختلط شرايينها، وتكثر في نسيجها المزاحمات. تلك المدن التي تغير إيقاعاتها في اليوم عشرات المرات، وتنقل نفسية النازل بين الكراهية والمحبة، والانـزواء والمخالطة، غير أن بها مقاهي متعددة الطبقات، وشوارع وأرصفة محتشدة بالحركة، لسبب ولغير سبب.

إنها من تلك المدن التي تجد نفسك فيها تنقاد للذبح دون أن يجرّك الجزار. ليس هذا فقط، بل إنك قد ترى أجزاء من لحمك تشوى تحت شمس نهاراتها، فلا تلبث أن تستسلم للذاذة رائحة الشواء.

يا للإنسان..

أليس هو الذي يبحث دائماً عن منزلقات جديدة، لا يلبث بعدها أن يصرخ: «ليتني لم أفعل كذا..» أو «ليتني فعلت كذا..» ؟.

أمور كثيرة تحدد مصائرنا في الحياة، لكننا لا ندرك لحظة اندفاعنا أننا سنحاسب مع ذواتنا ذات يوم.

فأمر تلك المدينة واحد من هذه الاقترافات، التي يتوقف صاحبنا عندها طويلاً، اقتراف الانغمار في مصاحبتها، وتحمل عناء أخطائها التي بقيت تسايره كلما احتاج إلى السفر خارج حدود بلده.

برغم المحاسبات القاسية، التي كان يكسّرها ويجبّرها مع ذاته، هاهو دخل فندقاً من الدرجة الثالثة، متخطياً عذابات الخروج من المطار، إلى أن وقف أمام ابتسامة موظفة الاستقبال وكلامها السياحي المجاني.

بقي دقائق بكامل لبسه مستلقياً على السرير المتراخي بالغرفة، والذي خنع تحت بدنه كما يخنع القطن المبلل.

لقد بدا كل شيء في الغرفة الضيقة، ضيقاً ومعتماً، ذا رائحة كرائحة الأبدان المغسولة بالعرق، أو كالخرق البالية التي لم تتعرف على الصابون من قبل.

وكما تجري العادة، ودون حاجة أحياناً، فإن أول ما يقلقنا في مثل هذه الحالات، رغبتنا الأولى في خلع ملابسنا، وإضفاء الماء على أجسامنا.. كان له ذلك، وعمد إلى دورة المياه. لم يكن للماء في دورته دائرة، فأغضبه ذلك، وجاء إلى جهاز الهاتف الثقيل قرب مكان الرأس فوق السرير، فكان بلا طاقة.. قال، ليفعل الله بعبده ما يريد، وتمدد ثانية على السرير، إلى أن يطرق أي طارق من أولئك الذين يكثر طرقهم وقت دخول الساكن في مثل هذه المنازل السياحية، وعلى أي حال..

فقد ردد: «الغاية تبرر الوسيلة»، ولكنه يحتاج إلى الهاتف، فبه يمكن أن يحصل على طريقة يطمئن بها إلى غايته.

أحس برغبة صادقة في شرب فنجان شاي ساخن، فأعاد النظر إلى الهاتف، وهزه من سماعته، كما يفعل النجوم السينمائيون، ولم يسمع ما يدل على وجود أي تجارب.

لا حل.. ارتدى ملابسه التي خلعها قبل قليل، وهبط إلى حيث مكان الاستقبال، وكان أمامه طابور مختلط من السائحين، وقد نفرت منهم روائح عطنة، قرأ عنها أنها تشبه «رائحة بول القرود».

كانت حقائبهم وأمتعتهم ترافقهم ،حيث تزحف مع خُطاهم

المتقدمة نحو موظفي الاستقبال.

لقد ظهرت تلك الأمتعة شبيهة جداً – ليس فقط ببشرتهم وشعرهم – بل بملابسهم القلعية واللوزية والصفراء.

بالطبع..

فإن صاحبنا النحيل الواهن لن يزاحم في هذه المخاطرة المحفوفة بالأبدان والحقائب. استوقف شخصاً له مشية تشبه الزحف السريع، كأنه لا يرفع قدميه عن الأرض، مصادفة.. كان ممن يعملون بالفندق، وأبلغه بأمر المياه والهاتف، المقطوعين عن غرفته، فأبدى الآخر استعداده الكامل بالإبلاغ الفوري.

اطمأن، وقال إنه سيرتفع إلى غرفته، وبالهاتف سيجرب طلب فنجان الشاي الساخن، حينها

سيحلو له البحث عن رقم هاتف قديم بين أوراقه.. ربما كان وسيلته الناجحة للوصول إلى غايته التي جاء متعنياً مختاراً، بعد اللهفات والتردد، لـ.. مقابلتها.

** ** **

كان صاحبنا قليل الحركة، ضعيف البصر، بنظارتين ثخينتين يحركهما كثيراً محاولاً تبين ما أمامه، فكانت خطواته المحسوبة مرهونة بالحذر، ومع هذا فهي لا تسلم من التعثر.

كان من أولئك الذين ترافقهم، كضرورات لهم، حقيبة يدوية بداخلها صنوف من الأدوية اللازمة.

يبدو أن صحبته الطويلة مع هذه المستلزمات، قد خلقت فيه

شخصاً مقنناً، حريصاً على عدم إزعاج الآخرين، لكنه لا يحبذ أن يشوه الآخرون نظامه، وقد يؤذيه أحياناً حتى طريقة السلام الفجة، أو العبث بسجائره مثلاً، أو الشرب من فنجانه، فكان هذا يُضيف إلى متاعبه متاعب، لكنه ميال إلى البشاشة، سريع التقرب من الآخرين، في حدود ما لا يزعجه.

على أي حال..

لقد كان لهذه الأمور ضرائبها القاسية، خاصة في مثل أحوال السفر، والتنقلات النادرة التي يزاولها بإكراه.

حيث أنه عاد إلى غرفته، مؤملاً عودة الطاقة إلى الهاتف، والمياه إلى مجاريها، فقد عثر، بعد تفتيش قصير، على الرقم القديم، ونقله بخط كبير أسود. رفع سماعة الهاتف، فكان الهاتف بلا طاقة. كرر المحاولة.. لكن، دون تجاوب. وبالطبع.. فالبلاغ العاجل.. لم يبلّغ بعد !.

قرر أن يعيد الكرة بالنزول، وفعل. بعد جهد في البحث والإفادة، جاء مهندس الاتصالات الخاص بالفندق، وأقسم له مرات أنه جاء، من أجل عينيه فقط، لإصلاح الهاتف.

سأله:

- هل يعمل الآن ؟

- تفضل.. اسمع .

وسمع وشوشة حقيقية.. ربما ترتب على وجودها شرب فنجان شاي ساخن أولاً، فهل يجرب الضرب على ذلك الرقم.. أم يطلب شاياً ؟

آثر الرقم.

بعد جوقة من التحيات والمجاملات، والتحفظ المراهن في سبب الغياب الطويل مع قريبتها العزيزة إرغاماً، علم أن:«حتى»، ليست في البيت، ولا في المدينة بكاملها !.

لم يكن راغباً في إبانة لهفته وتحسره، فعابث محادثته بكلام تراوح بين الجد والهزل.

ومع علمه اليقين بأنها أيضاً تعلم علم العارف بعلاقتهما الحميمة والبعيدة العمر والعمق، إلا أنها أكثرت من:

- جدّتها..، أتعبتها. عادت إليها، خارج المدينة.

- معها حق.. ليكن الله في عونها، طيب. أيمكنني الحصول على رغم هاتفها ؟

- ليس لديها هاتف.

- طيب.. جيرانها..

- لا أدري، وليس غريباً عليك.. أنا لا أقرأ، ولا أكتب.

- طيب.. العنوان ؟

- قلت لك.. أنا لا أقرأ، ولا أكتب. لكن.. كلها مسافة ساعتين بالسيارة.

- .... هم.

انتهت المكالمة على أمل بالاتصال قريباً.

** ** **

أربعٌ وعشرون ساعة دارت ثقيلة مرة قاسية، وفي نفس صاحبنا «شيء من حتى»، يؤرق أنفاسه.

رأى أن يدع الأمور خاضعة للصدف، الصدفة وحدها هي الوحيدة، التي يمكنها أن تلعب لعب القانون أحياناً.

نحن في جوانب حياتية تحاصرنا بعدم التوفيق، الذي لم نضع له في البال مكاناً.. لا نكتشف قدرتنا على تحمله إلا حين وقوعه.. وقتها تتقافز أمام أعيننا المبررات، ربما لأننا لا نريد أن نهضم مالا يرضينا.

هكذا كان صاحبنا.. يكاد يؤمن بأن الصدفة سوف تقدم له خدمتها دون تحريك، أو محاولة.

أليس في داخله همّ اسمه العناء من أجل مقابلتها، وكأنه جاء لتأدية هذه المهمة ؟ لقد أخذت اللهفة والشوق شكل التأدية الواجبة لإيجاد جواب مرضٍ أو شبه مبرر الآن.

ذلك ليس بجديد فمعرفته بها جاوزت اليوم عقداً كاملاً من الزمن.. لم يخلوا ببعضهما غير ساعات قلائل، طيلة هذا المتسع من الزمن، واللحظات التي يجدر بها اسم «السعيدة».. محدودة معلومة في ذاكرة صاحبنا، بل يكاد يتهجأ صورها.

وحين كان يجلس مجلس الحساب مع ذاته، في محطات والهة مؤلمة شجية عبر سِنيّ العقد بكامله، كان لا يجد جواباً للخط البياني المتذبذب في حب «حتى».

** ** **

ردّد بتنهيدة النحوي القديم: «أموت وفي نفسي شيء من هذه

الـ.. حتى.»

أربعٌ وعشرون ساعة انسحقت ثوانيها بين جوانحه، وسأل ذاته غير مرّة: (ماذا تريد منها، والنهاية ؟!) لم يكن يدري إن كان هذا السؤال شرعياً، ولا إن كانت الأشياء دائماً تأخذ غير أماكنها رغماً عنه !.

لقد رأى أن عدداً من الصفات الخائبة تليق بحالته جداً، إلى حدود البلاهة، فتلك الذبذبة البيانية ترسم بنبضه، ذات حالات، ارتفاعاً لا يمكن وصفه، تهبط ثم تعود بعد زمن، وهذا الزمن يقاس بالمواسم.

وقد حاول أن يستقري موسم الهيام، فوجد أنه يطغى عندما يسلخ الشتاء آخر متوتراته، هارباً إلى قوادم الصيف - لم يكن للسنة المدارية عنده، سوى فصلين: الشتاء، والصيف.

الآن..

للمرة الثانية يدير قرص الهاتف خارج الفندق.. الرقم ذاته:

- مساء الخير يا..

- مساء الخير، يا ابني.

كانت تدعوه بـ «ابني» (لا بأس: شيء طيب). ربما لولاها لما استطاع الحصول على وسيلة أخرى، بل من المحقق، فمن يقدم على رفع لافتة مكتوب بصفحتها اسم حبيبة، ليطوف بها بين ملايين يسكنون هذه المدينة الاستهلاكية الطاغية ؟!.

أم يفضح همس قلبين في إعلان صغير بالجريدة !!

أمر مضحك ولكنه بالغ المرارة.

قالت قريبتها، بكل هدوء، إن اليوم الخميس، يكمل أسبوعاً لم يسمع فيه صوتها، وإنها قلقة عليها.

قالت إنها تحدس سماع صوتها اليوم، قبل أن ينتهي مدار الساعة.

تساءل: كيف يمكن أن يعيش في انتظار الحدس؟

لم يحادثها طويلاً. ترك رقم هاتفه وغرفته عندها، بعد أن أضناه الانتظار، حيث استدعت بنت جارتهم.. أملاه وانسحب.

كاد يختنق من العزلة، وحسب أنه في معتقل اختياري.. لا تربطه بغير عاملي الفندق رابطة.

أصدقاؤه في المدينة كثيرون، لكنهم لا يلائمون في مثل هذه الحالة التي فرضها على نفسه، بل ربما لم يكن هو صالحاً لمقابلتهم أو مهاتفتهم قبل أن ينهي مهمة أشغلته، متفرغاً لرحمة الصدف والحدْس!.

لا مكان لأي انشغال آخر.

كان يتسلى بسماع الراديو أحياناً، وامتلأت مسامعه حتى طفرت بالبرامج المكررة، وبالأخبار التي يضبط مواعيدها:

- القتال يشتد في سراييفو.
- محادثات السلام بين العرب وإسرائيل، تدخل أسبوعها الرابع.
- الحظر لا يزال مستمراً ضد ليبيا.

- الصراعات العنصرية في لوس أنجلوس تستوجب تواجد الجيش الأمريكي.
- (جرانج) في جنوب السودان يتحدى من جديد.

أمام مكان نومه، إلى جانب الحائط، صندوق بلاستيكي بضواغط صغيرة، وشاشة بارزة.. لم يفتحه! لقد كان صاحبنا يجد أنه يمتحن ذاته للترويض على أكبر قدر من الابتعاد عن أي مؤثر استهلاكي.

على كلّ جانب.. هرولت الساعات، وكانت تتغذى على أملين معلقين بالصدفة والحدس. تساءل كمن يتلمّس سنداً معنوياً، وهو يعلم عدم موضوعيته:ما هذه الصدف.. ألم تجد إلا هذه الأيام، تسافر فيها حبيبته إلى جدتها ؟!

إن من عجب الأمور، أنها لا تخدمنا حين نكون بحاجة إليها. قد تقف ضدنا عندما نكون شديدي الحاجة.

لعلنا على الغالب، نرغب دائماً في أن تسير الأشياء في طريق رضانا، حيث نفقد رفقتنا بالموضوعية.

مرة أخرى:

ما الذي يدفع يا صاحبنا بقلبك، الذي كادت تطفىء شموعه عشر من السنين، إلى إيقادها من جديد ؟

عاد يفصل بين تراكيب الأشياء، إلى أن يبلغ ذلك اليوم الصيفي، الذي تسلم فيه رسالة منها بالبريد، وعجب من وفائها بعد عقد من السنين. يا لقلبه الأشيب.. لقد هزه بعنف في الأيام الماضية، فلم ينزّ بقطرة دم واحدة، ثم ما لبث أن هازج نبضه. قال، إن النهر لا

يعطي الظامئ ماءه مرتين. نعم.. ولكنه يبقى نهراً يحيا فيه الماء ولو كان متغيراً، أو متجدداً، ويبقى للظامئ عودة إليه، ولو بعد حين.

ومن حيث العودة.. هل كانت الرغبة المحمومة في إشعال شموع جديدة؛ أم كانت نوعاً من رَدّ الوفاء بالوفاء ؟.

** ** **

للمرة الأولى منذ يومين قضاهما صاحبنا في غرفة الفندق المعتمة، يرن جرس الهاتف.. لا بد أن يكون منها، أو بشأنها:

- آلو.. نعم..

كانت موظفة الاستقبال، تبلغه بضرورة إخلاء الغرفة بعد ساعة من الآن.

- كيف ؟!

- ألم نخبرك قبل استلامك المفتاح، أننا لا نقدر على تأجيرك لأكثر من يومين ؟

- عفواً.. لا أتذكر.

- معذرة يا أستاذ.. هناك فريق سياحي سيصل اليوم.

لم يتذكر صاحبنا اشتراطها وقت نزوله، بهذا الشرط المضني الآن. لعله طابور طويل وشبيه بتلك الرائحة التي قرأ عنها. كل دقيقة تضيع ستضاف إلى نفقته في البحث عن ملجأ آخر.

«ليت للبرّاق عيناً..» الوقت يلح نحو منتصف النهار، والمدينة غارقة بالسائحين، ومختلطة بالتشوهات التي يهرب منها، ويؤثر

الانعزال عن سياطها.

لا وقت. لملم حوائجه وهبط، ثم استأجر سيارة، بعد أن دفع أجرة الغرفة والخدمات.

سأله صاحب سيارة الأجرة.

- إلى أين ؟

- إلى أي فندق قريب.

بحث في الفنادق المحيطة. لم يجد له مكاناً. لقد كانت جميعها مسكونة بـ «الفِرَقْ»، والحافلات الضخمة الطويلة تترع عند بواباتها، الحقائب القلعية والأمتعة المحمولة على الأكتاف والأيدي، التي تذهب إلى الداخل. الحرارة الصيفية لا تتردد في الفتك بالأجسام، وإفراز مقدار أكبر من تلك الروائح التي قرأ عنها.

بعد بحث استوجب الصمت والإذعان، وحفنات متتابعة من التداعيات، ووثبات من التردد كان صاحبنا يجرجرها في خاطره.. رأى أن يحطّ بفندق منغمس في حارة داخلية، ولم ينأ عن حنين جديد، ارتبط بـأذان ديك متكرر، يأتيه من سطح بيت ملاصق لغرفته.

على أي حال..

لقد اطمأن كثيراً بهذا المؤنس، الذي أعطاه كامل إصغائه كلما تقهقرت الشمس في لفافتها، وكان قد ألفه مثلما ألف عامل المصعد، الذي يقدم عمله دون مداهنة أو كلام، ولما سأله مرة عن اسمه، قال «أبو مُسعِد»، ولم يضف شيئاً من ذلك الكلام الذي يتوفر بتملق في مثل هذه الأماكن ؛ ابتسم له ودعاه لشرب فنجان شاي، فوافق على

أن يكون ذلك بعد أن ينهي نوبته الصباحية. حين جلسا.. كان صاحبنا يتفرس من خلف نظارتيه في وجهه الذي يشبه الأرض المحروثة.. كان وجهه طينياً ومستعداً لتقبل فعال صعبة وغير مرضية في الأيام الآتيات، وبالرغم من أن فمه، الذي لا يكاد ينفرج إلا عند الكلام. يبدو مرسوماً بعناية، إلا أن شاربيه كانا عنيفين أسودين متراخيين من طرفيهما كما ذيل ديك. وكانت أصابع يده تقبض على كوب الشاي الزجاجي، كأنما تقبض على رقبة طائر. قدم له صاحبنا سيجارة وأشعلها قبل أن يشعل سيجارته، فرفع يده قليلا دون كلام، كأنما يحييه باحترام.

لم يكن حديثهما في شأن محدد. كان قطوفاً حول الحياة والناس، وكان صاحبنا يتحاشى أن يسأله عن عمله وأحواله، مخافة أن يدخل معه في إحراجات تطول مداهناتها ومحاذيرها، وحرص على أن يلتقط منه أية حكمة من خريف العمر.

قال «أبو مسعد» كلاماً في غير هذره: إن المرأة كالشجرة، إذا أحبت أعطتك ثمارها، ولكن لا تظن أنها لا تحتاج إلى سقاية.

سأله عن نوع تلك السقاية، فأجابه باقتضاب.. أن الشجرة لا تعيش دون ماء بعض الشجر يموت إذا قطعت عنه الماء، وبعضٌ يكتفي بمطر الموسم، من السنة إلى السنة.

** ** **

عجب صاحبنا من «أبو مسعد».. لم يسأله عن شيء، حتى عن اسمه.. كان يدعوه بالأستاذ. حتى رقم غرفته لم يسأله عنه، وعندما ترك «الأستاذ» علبة سجائره نصف المملوءة، على الطاولة التي توسطت جلستهما، لحقه بها وهو ينادي دون جَهْر: يا.. أستاذ، علبة

السجائر. قال إنه تركها للذكرى. أجابه وعيناه جاحظتان: شكراً، لا أريد أن أتعود على هذا النوع.

ربما نقابل في حياتنا عدداً من البشر، يتركون في ذاكرتنا مواقع لا يمكن نسيانها، وحين نتساءل: لماذا لا ننساهم، تجيبنا خصائصهم النادرة، بأنها تمثلهم، وتظهر صورهم واضحة وقريبة التراجع، كأن عامل الزمن قد حال دون جرفها.

كان «أبو مسعد» واحداً من هؤلاء الذين لم يفنوا عناءاتهم بالمبالغة في القول المتصنع، ليصلوا إلى قلوب محدثيهم. صحيح أن صورته كانت مسايرة مع الأيام، لصورة أذان الديك الحميم الذي لا يفرق بين صوته وأصوات ديوك أخرى كثيرة، نشأ زمناً معها في قريته.. لكنه يبقى صوتاً فريداً لذيذاً، يذكره بالفندق والحارة، وبأبي مسعد، وبسفرة جاء فيها من أجل «حتى».

كان قد أنهى واجب المثابرة والأداء، منذ نزوله بفندق جار الديك - كما أطلق عليه فيما بعد - حيث بُلّغت القريبة بالرقم الجديد، وعانت حتى وجدت من يكتب لها الرقم، لكنه على أي حال تيقن من تبليغها، وها إن الأمل لا يزال معلقاً بالحدس والصدفة.

وفكر، لو أن قريبتها العزيزة تعرف العنوان.. لذهب إليها، ولجلس من طلعة الصبح إلى المساء، في مقهى قريب من بيتها، أو أي مكان عام يتوقع أن تهبط إليه.

قال:

إن لم يكن للناس، في حكمهم على الظواهر، إلا عيونهم، فكيف تحدثه نفسه بطرق الباب الذي يردع خلفه مقامها. وإقامة

وحدتها؟!

أمر لم يُجد له التمادي بالتفكير فيه، ولكنه استدرج كافة الحيل والافتراضات، ورأى أن ذلك ممكن، فلو أنه تعرف على عنوانها، لما كان من المستحيل إبلاغها بوجوده.. ومسائل خفية ربما ينجح فيها.. أصعبها: حلاقة شواربه وتسويد زجاج نظارته، اللذين عرف بهما، وتغطية مقدمة رأسه، بشعر مستعار، أو وضع قبعة أو طربوش.. المسألة ليست معقدة إلى ذلك الحد. ولكن ليس هناك مكان للمراجعة، فالوسيلة ممكنة، إذا ما ضبط الهدف. صحيح، انه لم يفعل أي دور تنكري، ولم يسبق له هذا غير أن الحالة، ربما استوجبت فعل ما لم يكن قد فعل.

كاد يمر بحكايا الحب وعذابه وهجرانه، مرور المستهزئ، والآن هو في«طوق الحمامة»، ويحتاج أن يكون «زرياب» في النغم، و»ابن زيدون» مع «ولاّدة».

لقد تعود رفض التعاطف مع قصص الحب العذرية في التاريخ العربي، وأبى أن يفتح حواراً مع «روميو وجوليت»، وأخذ يتساءل متراجعاً إن كان الخلل في حب أولئك السابقين واللاحقين، وطريقة تعاملهم معه، أم في تقليدية تناولها، أم أن ألسنة الناس هي التي روجت فبالغت !!

ونبت بخاطره القول المردد: «الممنوع مرغوب» و«البعيد غالي» والمثل القائل «زر غُبّاً. تزدد حُبّاً»

كم يؤلمه استرجاع ما قيل ويقال في هذه الشؤون، التي لم يطرأ له على بال أنه سيقع في شراكها.

لا يزال يعاند، مدارياً إن كانت همّته قد وجهت قبلتها نحو الانشغال بأمر كان يراه نوعاً من الخبَل.

لكنه يحبها، يحبها فقط، ويرى أن كل قوانين الطبيعة والتاريخ اشتركت جميعها لتهيئ قلبه لها، فكيف يخرجها من دمه ؟.

إن «حتى» من تلك النساء اللائي لا يعبرن عن دواخلهن باللسان، ولا يكشفن عن دواخلهن تجاه عواطفهن، ويصعب على من يقع في حبهن أن يسمع كلمة «أحبك»، أو ما يشابهها.

ألا يدعوه ذلك إلى مراجعة نبضه، في أحايين كثيرة ؟، ألا يستطيع أن يضبط مكانه في قرارة صدرها، لكي يهزم وجدانه ويعود مرغماً مقتنعاً بعدم إشغال خواطره بها ؟!

كان صاحبنا يتمنى لو حدث له أن تعرّف على الحقيقة.. سيكون جازماً وحازماً، ولن يرضى بطريقته تلك معها. سينهي كل شيء بقدر من الاحترام والتقدير لها ولنفسه، التي لا يقبل أن تكون في موضع الحاجة المذلة، أو الشفقة.. يا لمصيبته لو علم أنه يطارد سراباً يتصاعد في هجير يقطر من مسامه، ومنابت شعره.

ثم..

إذا كانت هذه الافتراضات، التي لا يستطيع، أو ربما لا يرغب في أن تكون واقعة..، أو لا تجانب الصحة كثيراً، فما الذي دفعها إلى كتابة رسالتها الثمينة تلك، بعد عقد من السنين ؟!

لم يكن صاحبنا ليجعل من لحظة خلوة – حدثت ذات حال–، وحدث فيها ما يحدث بين عاشقين عاشا على الوله والاحترام القائم على الغيرة والحرص والرغبة المترددة لحظة عابرة.

فقد تعلم أن على الرجل في واقعنا أن يكون البادئ الجريء.. ذلك الذي اعتادت عليه المرأة، أن ينتزع لذاذاته منها، ولو أظهرت له التمنع.

أليس من الجائز أن يكون ذلك الاستسلام الاندفاعي منها وقتها، أمراً طبيعياً، يحدث لهما ولغيرهما في مثل هذه المناسبات الحامية؟!

** ** **

اشتهى أن يخرج من عزلته.. رأى انطواءه زاد من صوفية ستصعّد الغربة فيه، فهو يحتاج اليوم منذ الصباح، إلى أي شخص يتحدث معه، في أي حديث كان.

الأوقات المعلومة، التي كان يتوجب عليه فيها، أن يهبط إلى مكان الطعام وتناول القهوة، كانت تحبطه على الغالب.. فأينما يلتفت، يرى ويسمع لغات لا يفهمها، وضحكات وروائح صاخبة، من النزلاء الذين تشابهوا في الملبس والهيئة، واختلفوا في طبقات الصوت والضحكات، الذين قرأ عن رائحة عرق أبدانهم.

ومع أنه كان في احتياج بالغ، لإقامة علاقة ما، مع أية أنثى في هذه العزلة المضنية، إلا أنه لن يجد في نفسه استعداداً لفعلها مع هؤلاء النزلاء.. ليس لأنهم من أولئك الذين تتكلم حكوماتهم بالنابالم والقنابل الفسفورية. لعل التعميم غير عادل، غير أن التراكم خلق في داخله انقباضاً وكراهية، جعلته يتصور «أن القرين بالمقارن يقتدي».

عدل عن التداعي في كسر عزلته بمثل هذا الحال. ارتدى ملابسه،

وخلّف باب الفندق الزجاجي العريض، الذي لا يتناسب مع دهاليز الحارة وضجيج زحمتها، ومضى دون أن يحدد وجهته، لكنه تذكر أن المدينة كثيرة المقاهي. إن هذا العزاء اللذيذ فيها يخفف من وحشيتها، في نظره على الأقل، ولم يكن صاحبنا من رواد الأماكن التي تقدم «أم الخبائث» كما يسميها القوم الصالحون، لأنها لا تتوافق مع صحته المقننة.

مشى بحذر، على قدر بصره وبصيرته، حتى ألفى مقهى مجانباً لسوق كثر فيه الخضّارون، والشغالات المتحركات بسلال المقاضي، و.. قعد بمحاذاة الرصيف المكتسي ببقايا الشاي والمياه، والخطوات المتعاقبة. طلب، في رنين الأكواب والفناجين وطلبات الزبائن واصطكاك الطاولات الدائرية الصغيرة، وبقبقة الأراجيل.. كأس شاي ثقيل.. تشرّبه على مهل وعيناه تمتلئان بوجوه كثيرة تَعْبر أمامه يشبه بعضها قليلاً وجه «حتى».

نبت قدامه صبي، قدّر أنه في العاشرة، كان يلهث. مد يده إلى كأس الماء المترعة على الطاولة النحاسية قائلاً، وهو يقربها من فمه:

- ممكن أشرب ؟

- تفضل.

ثم وضعها بقوة، وظل يرقبه إلى أن اختفى.. كان ينهب الخطى، ويمر من بين الأبدان دون أن يصطدم بأحد.

بقي لصوت الكأس الزجاجية على سطح صحن الطاولة، ولمشهده وهو يهرول بين الأقدام، أثر، فأشعل السيجارة الرابعة، وامتصها بتلذذ.

الصور المتحركة والمتوالية المتجددة في الشارع الضيق. تملأ حواسه.

قال، إن الزحام والضجيج صالحان أحياناً للإقناع والثقة، بأن الحياة تسير، ولن تتوقف عند فرح أو حزن أحد، وأن هذا يعني أن الأمر ضروري كطبيعة قانونية، يحتاجها الكائن، سواء أحس بذلك أم لم يحس.

أحس برغبة، لم يستطع تحديد مبعثها، في البكاء. لكنه لم يفعل، فالبكاء عنده يحتاج إلى مكان لا يتوفر فيه غيره.. ألم يكن وحيداً ومنعزلاً ؟ لماذا لم يأته البكاء حينها ؟! إن الأشياء لا تختار مكانها اللائق بها دائماً.

دفع ثمن الشاي الساخن وكأس الماء ونهض. جرجر قدميه يميناً وشمالاً، وشاهد عدداً وفيراً من الصحف والمجلات، قرب بائع بهندام بلدي على الرصيف. لم يفكر في شراء شيء منها.. لم يكن متمكناً من قراءة عناوينها العريضة. وجوه الحسناوات، على الأغلفة اللامعة فقط، هي الشيء الذي كان يبدو واضحاً حين اقترب من البائع مسلماً دون مناسبة.

عاد بشعور مقبول، نحو موظفي الاستقبال بالفندق، يسأل إن كان جاءه اتصال هاتفي، حين قابله رجل من أولئك النزلاء الذين يشبهون لون ملابسهم وحقائبهم، ترك الآخر لوح الباب

الزجاجي الثقيل، يأخذ قوته خلفه، دون أن ينظر أمامه حيث كاد صاحبنا يأخذها على وجهه ومقدمة جسمه. دفعه ذلك إلى: «حاسب يا..»، قال العبارة نفسها، التي قرأها عنهم.

وعلى أي حال..

فإن جواب موظف الاستقبال ؛ عن عدم استقباله لأي اتصال يعنيه.. أضاف إلى صاحبنا نوعاً من العصبية الصامتة.

عاملو المطعم بالفندق، تعودوا على طلبه المعروف في الغداء: طبق صغير من الارز الأبيض، سلاطة خضراء بلا طماطم، شوربة عدس أو دجاج، قطعة لحم لا تزيد عن مائة جرام حمراء، ربع رغيف، بعدها.. يفضل أن يكون الشاي الثقيل ساخناً.. يشربه في الغرفة. كان لصاحبنا ما أراد، وتمدد على السرير راجياً قدوم نوم القيلولة، الذي لم يعتد عليه.. لم يأت النوم. فتح الراديو.. نشرة الأخبار في تمام الثانية:

- المجاعة تهدد ثلثي سكان الصومال.
- شبه تفاؤل حذر في المحادثات بين الأطراف العربية المشاركة من جهة، والطرف الإسرائيلي.
- الاعتراض على نزاهة الانتخابات من بعض الأحزاب في لبنان.
- عواصف مدمرة تجتاح أمريكا.. فتقتل وتشرد وتهدم وتغرق.

استمع إلى النشرة مع تفاصيلها وموسيقاها الأخيرة.

صامتٌ صاحبنا ؟ علق تعليقات شبه جاهزة ومختصرة، على الأنباء. خرج إلى الشرفة الضيقة، كانت بمقعدين وطاولة مستديرة

مجدولة من خشب الخيزران.. اقتعد كرسياً منهما، وسرح يوقّع بأصابعه النحيلة على حافة الدائرة المنبسطة أمامه.

كانت أغنية شجية ترمي بصداها في أُذنه، من شفة شقة مقابلة، تجاوب مع لحنها الشعبي وصوت مغنيها، وهما ينفثان بطابع بلدهما الحميم.

أليس الإنسان يستطيع أن يحدّد مقدار وقيمة المكان الذي عاش ونما فيه، إذا غاب عنه ؟! قد يكون الغياب قصيراً، لكن البعد الجغرافي والزمن النفسي، يبقيان أساساً في الموضوع، وهذا الشعور يزداد بزيادة هذين العاملين، ويتعمق إذا كانت فرصة العودة صعبة التحقيق، فالمكان ليس كطبيعة مجردة، أو بوصفه البيتي الهندسي، ولكن بأناسه أيضاً، وبخصوصية أولئك الناس، في إيقاع حياتهم، وطبيعة احتفالاتهم ومآتمهم ورقصهم وغنائهم. إنه يألف أيضاً صوت أذان الديك.

هكذا كان صاحبنا يجيب على تساؤله، عن سبب تجاوبه الحميمي مع تلك الأغنية بالتحديد، غير أنه ما لبث أن تساءل، فيما لو أنه تجاوب مع أغنية أخرى من بلد آخر، فأين المكان هنا ؟

رأى أن هذا يرتبط بالموقع الخاص لدى السامع، الذي قد تعني له الأغنية ذكرى، أو استعادة لموقف أو حدث خاص به هو دون مشاركة مجتمع بكامله، في مكان وزمان ما، لذا فليس بالضرورة، أن تنتمي إلى الذوق العام، أو حتى الخاص.. إن ذوقها يتحول في العادة إلى الارتباط بالذكرى والموقف.

صاحبنا يحب سماع صوت «فيروز»، يحب أغاني محددة لها، لأن «حتى» قد حدثته ذات مرة عنها، فأضاف ذلك إلى حب أغانيها

حباً شديداً.. أليس «كل ما يحبه الحبيب حبيباً ؟!»

** ** **

دق جرس الهاتف. فدق نبضه، نهض إليه تاركاً كرسي الخيران يتطوّح وراءه:

- آلو..

- آلو.. مين ؟

- من تريدين ؟

- حضرتك ؛ السيد أبو زيد ؟

- عفواً.. يبدو أنك أخطأتِ ؟

لم ترد بشيء.. أقفلت مكالمتها السؤالية القصيرة. أهمل صاحبنا سماعة الهاتف الثقيلة، وبقي صوت ارتطامتها طويلاً في أُذنه.

تذكر أغنية «فيروز»:

«دق الهوى عالباب

قلنا حبايبنا

تاري الهوى كداب

قصده يتعبنا».

دندن بلحنها على هيئة الهمهمة، وحاول أن يتقبل الخيبة الهاتفية على أمل في اتصال مفاجئ ينبئ بخبر ما عن «حتى».

** ** **

انصرمت أيام خمسة في الحساب، ثقيلة طويلة على صاحبنا، الذي صار قلبه كالطائر المقرور.

ما أصعب الانتظار، وما أعناه إن كان قائماً على الصدفة والمتوقع، فربما يكون أو لا يكون.

رأى صاحبنا أنه لا يختلف كثيراً، عن ذلك الرجل في قريتهم، الذي يعيرونه بـ «كما فلان.. يبغي، العصيدة فوق السرير»!

حاور نفسه. مازح الأمور وعجنها، ثم فتتها، وفكك تراكيبها: ماذا يفعل؟ القناة الوحيدة هي القريبة، وها هو قد أكّد تبليغها، لكنها أيضاً تنتظر على الحدْس والصدفة.

فكر في البحث عن وسيلة أخرى، لكن لا جدوى أين مكان الهدف؟.

الهدف المبتغى في يد القريبة. سيهاتفها، ويعرض عليها الفكرة الطارئة:

تصحبه بنفسها إلى حيث مكان «حتى». تطرق عليها الباب، وتجدها بانتظار صاحبنا وولهه.. حينها ستقفز «حتى»من الفرح، وسترتدي أجمل ملابسها. ستتزين بما تملك من زينة.

ألسنا نبتهج حين نصور أحلامنا، ونلونها كما نريد؟! أليس في الحلم بعد جميل اسمه الأمل، و أليس جميلاً أننا لا نعرف ما بعد الآمال، وإلا لماتت أحلامنا؟!

هكذا كان صاحبنا يعيش الحالة.

اندفع إلى الهاتف: جاءه صوت قريبتها الذي يراه أليفاً،

- أهلاً.. يا ابني.

أكثر من التحيات والسؤال المكرر عن الأحوال. أقسمت بحياة «حتى»، أنها لم تتأخر عنها مثل هذه الأيام. لم يكن سألها، لكنها تبرعت بالإجابة الخشبية في وجهه، وحفزّه ذلك على طرح فكرته بطريقة مستبشرة، وأضاف عليها محسنات لفظية من باب الترغيب.

كانت صاغية دون تعليق.. فأوجس أن الفكرة ستلقى منها غير القبول، بالفعل..

كانت رافضة، ثم متسائلة، ثم مترددة، ثم «ربنا يسهّل»، وبشرط أن يتم ذلك في الغد صباحاً.. وتمّ القبول بين الطرفين، على أن يكتري سيارة، وينبهها بحضوره من أسفل العمارة، التي تمتاز بمدخلها الضيق المعتم، وسلالمها المضنية المغطاة بلون كربوني.. كانت تسكن في أعلاها بالطابق السادس والأخير، مما جعلها تثبت جرساً كهربائياً على يمين الداخل من بوابة المبنى.

لم ينم صاحبنا، فقد ظل يعدّ لتلك اللحظة، التي تحاور معها أول ما ركب الطائرة في سفره إلى «حتى».. لحظة لم يستطع دوران الأرض أن يستبدل معناها: «اللقاء».

كانت غرفته تبدو مضيئة، وبان خشب أثاثها البني الداكن فاتحاً، ودخل دورة المياه عدداً من المرات دون حاجة، وجعّد مقدمة رأسه في شعيرات بقين على خجل، ومسح زجاج نظارته حتى سمع صفيرها، فرّش أسنانه مرة مرتين وثلاثاً، ومرّر شفرة الحلاقة فوقاً وتحتاً حتى أحمر وجهه.. تأمل أظافره فاستحسن هيئتها، وأمام المرآة استنفد كل بصر عينيه في اختيار ربطة العنق المناسبة للبدلة، التي

كان «يهف عنها الذباب»، ويعدل ثنياتها.

ومع علم صاحبنا بأن هذه الحملة التزيينية ستنكسر بعد تلك اللحظة المؤقتة، التي أقامته وأقعدته، إلا أنه كان يجد، في يقظتها ومعاملتها من جديد، لذة وحيوية وتجديداً.. ربما لأنه لا يشغل رأسه بتفاصيل دوافعها وأهدافها، فالأمر في كليته من أجل «حتى».

ألسنا نفقد لذة الأشياء عندما ندرك جواهرها ؟ ثم، أليس ذلك ضرورياً على الغالب، للوصول إلى لذةٍ ما، دون الانزلاق فيما بعدها ؟.

لقد كان هذا المفهوم يأخذ من صاحبنا مأخذ التطبيق أحياناً، غير أن لهاث الإنسان وراء معرفة جذوات الأمور، يجعله يثابر لاكتشاف الحقائق الغامضة وعليه، مقابل القبض على نهر اكتشافه، أن يقدم الضريبة.

على أي حال..

انقضت تلك الليلة بلذتها ومرارتها، وعلى تعب معاكس.. خمد بعد أن أذن الديك مع تبيّن الخيط الأبيض من الأسود من الفجر. نهض صاحبنا، مع كل ما مضى، نشيطاً. رتّب على عجل ؛ واجب الإفطار والدواء والارتداء والتمشيط والتلميع، وعند الوقوف أمام الصفحة الزجاجية العاكسة في دورة المياه، رأى أن ربطة العنق لا تتلاءم مع لون بدلته، فعدل عنها إلى واحدة أخرى، كسبت منه بعض الرضى، و.. هبط إلى خارج فندق جار الديك، ليجد سيارة أجرة تنتظر من يكتريها.. فاكتراها، وبعد حين من مشوار القريبة تفاهم مع صاحبها لمرافقته إلى سفر خارج المدينة:

- أين بالضبط ؟

- ليس بعيداً.

- يعني.. أين ؟

- مسافة ساعتين ذهاباً، ومثلهما في العودة.

- على بركة الله.

وبالغ في «يا فتاح يا عليم».. وليحفظ برعايته سير الأمور، جاء من أجلها صاحبنا، وسهر في سبيلها حتى تنفس الصبح.

بلغا بوابة العمارة القديمة العالية، وتم الضغط على الجرس الكهربائي، وسُمع وقع خطى على الدرج.. أخذ يقترب رويداً رويداً، وظهرت قريبتها كبقرة سمينة، وعلى رأسها منديل عقد من طرفيه تحت مستوى الذقن، وتبادلوا تحية الصباح، وردّ كلٌّ بأحسن منها، ثم وضعت ثقلها في المقعد الخلفي. سأل السائق:

- إلى أين ؟

لم يجب صاحبنا. قالت:

- طريق.. شمال شرقي.

وحددت وجهتها بالضبط.

- على بركة الله.. يا فتاح يا عليم.

كانت الطريق الضيقة مكسوة بنور الشمس الطازج، وعلى الجانبين، بين وقت ووقت، كانت تظهر أشجار مبططة وكثيفة، ومن خلفها تتسلل الترع النهرية الهادئة. كان مزارعون بهيئات جادة

ينساقون خلف دوابهم، ومساحات يانعة تفرد يقظتها وأُلفتها في قلب صاحبنا، حيث تجاذب معها أطراف الحنين إلى بلده وقريته.

أما ما كان من شأن الحديث بين الثلاثة، فكان قليلاً منقطعاً، يغلب عليه التعليق على ما تفتح عليه العين أحياناً.

كان على حافة الطريق، على يمين القادم إلى تلك المدينة الصغيرة، التي تقطن بها «حتى» نساء سمراوات رشيقات، وصبيان بجلابيب متهدلة وطاقيات على رؤوسهم، تبدو متناسقة مع سِحَنِهم وشعورهم القصيرة.. يعرضون للبيع أنواعاً من الفاكهة والخَضار، بعضهم يقف تحت ضحى شمس العاشرة، وبعضٌ يتصدر عشة من القش الذي يسقف عواميد من جذوع الشجر الرفيعة.

طلب صاحبنا من السائق التوقف، فأسكت هدير السيارة قرب عُشة عرضت في واجهتها أقفاص من ثمار «المانجو».. لم يكن قربها أحد، وحين تقدم صاحبنا والسائق، طلعت امرأة من الداخل، قدّر أنها في منتصف الثلاثين، تحتضن على يسارها طفلاً في آخر سِنِي رضاعته. بان ذلك من أسنانه الأمامية الشبيهة بلون الحليب.. كان يبحلق بعينين مندهشتين، يفرك رأس أنفه بعصبية على كف يده، ويضرب بالأخرى على كتف حاملته.

لم تدلل على معروضاتها، وعندما تفاوض السائق معها على السعر، ردت بكلام لطيف - حتى لكأنه لم يكن مجاملة - قائلة، كله بين أيديهما، ولو اعتبراه ضيافة فمعه الصحة والعافية.

كان رأسها الملموم بمنديل عقد من الخلف لا يتحرك. عيناها صافيتان وديعتان ثابتتان قويتان، وكان صاحبنا قد علق ذهنه بالطفل، وطفح صدره برغبة في سؤالها عن اسمه، من باب الصورة المترددة

في ذاكرته، لأمه منذ ما يزيد على ثلاثة عقود، وهي تحمل أحد أخوته إلى صدرها، وقد تدلت قدماه السمراوان الورديتان، وبإحداهما حلقة معدنية بيضاء حديدية مبرودة.. علم بعدها أنها «الحِجْل».

بعد إنهاء «الصفقة الشرائية»، وضع السائق القفص الثقيل داخل مكان الأمتعة والحقائب في السيارة.

ولعل القريبة قد فهمت أن صاحبنا سيعطيها القفص، لتدخل به على «حتى» ومن معها في البيت، وحسِب أنها لن تقدر على حمله، وأن السائق سيحمله عنها.

** ** **

اقترب الطريق، وفزّ بالضلوع حسّ غريب، وحاذر صاحبنا أن يكون شتاء قلبه المعهود قد ساق برد رياحاته في هذا النهار الصيفي، في هذه الساعة الموعودة، والمرصعة بالنوى منذ حطّ رغبته رهن السفر، إلى لحظة.. الآن يعيش ما قبل غايتها.

لقد رأى أعمدة النور، على جانبي الطريق، تراخي أذرعتها، فعلم أنه يدخل حدود المدينة. دقائق معدودة.. سيعرف الشارع والعمارة والبيت، وسيقرأ تفاصيل المدخل والمخرج، والرصيف والحارة، ووجوه الناس، محلات التجارة، وخضرة الشجر، وكل ما تصيبه

العين، وسيعلن لكل سكان هذه المدينة الصغيرة أنه يحبهم جميعاً، ويحب حتى حيواناتهم السارحة في الحقول والممرات.

لقد بدت مدينة مغسولة بماء السماء، لها رائحة النبات، وعلى واجهات شرفاتها ابتسامات من يستقبل المحارب المنتصر.

كانت مدينة، رأى صاحبنا أنها ليست جديدة على الغريب، وبعيدة عن تلك المحشودة بالمضاربات والاستهلاك والضجيج. أُناسها قليلون متشابهون.

سأل السائق:

- ندخل من هنا يا «حاجة» ؟

- من الشارع الثاني على الشمال.

وانعطفت السيارة إلى اليسار، في حارة ترابية، وهرع أطفال بثياب غبارية، كانوا يلعبون، وحركت ماعز تهاطلت أثداؤها داخل خباء أبيض بخيطين متقابلين على ظهرها، فأوقف السائق سيارته، وترجّل لإبعادها، فكادت تنفصل من رجليها الخلفيتين، وهزت أذنيها المهطّعتين تحت الظهيرة.

نعم..

هنا بالضبط، ومن هذه البوابة الصغيرة المتهالكة تدخل وتخرج «حتى»، وعلى هذا التراب الناعم تمر خطواتها. كل العيون الصغيرة والأقدام الطريّة الحافية تعرفها. بائع الخضار، والبقال عند فم الحارة يرونها ويعرفونها.. كم يغبطهم.

لماذا نرى الناس بعيون من نحب ؟!

ولماذا نألف حتى الجماد الذي يكون قريباً من أحبتنا ؟ هل نحظى عندما لا نكون عادلين في الأخذ بالشعور تجاه هذا الشأن، وإذا كنا كذلك، فما هي الكلمة التي يمكن أن نستبدل بها «الحب» ؟.

وهل أخطأ الذين جعلوا الحب، في تعريفهم، أسمى ما في

الإنسان ؟!.

صاحبنا الآن يتجمع، بحسه وبدنه، وفي عينيه الرحبتين خلف النظارة، ويجذب بصرهما ذلك المدخل الصغير للبناية، التي عدد طوابقها، فبلغت الثلاثة.. جميعها بشرفات ذوات أبواب بلون أخضر قديم، تيبّس على مشارط خشبها المصفوف، ومن الشرفات تثاءبت ملابس غُسلت منذ الصباح، وظل بعضها يغازل هبّات رياح قيلولة ريفية خاملة.

لعل «حتى» في الطابق الأول، أو الثاني، أو ما فوقهما.. سيعرف فيما بعد.

خرس هدير السيارة. فتح السائق الباب في مؤخرتها. رفع القفص المغطى بالقش. حمله على راحة كفه معتمداً على ذراعه، فاستوت بالكتف، وكان يعلم كيف سيمضي به مع القريبة. أخرجت هي الأخرى بدنها من المقعد الخلفي، وتدلت حقيبة يدها السوداء من بين أصابعها القصيرة، ومشت متباطئة يتبعها السائق وعينا صاحبنا الذي بقي جاثماً في المقعد. بقلب كالوردة الحمراء تنتظر طلل أول الفجر.

** ** **

بعد وقت حسبه صاحبنا طويلاً.. عاد السائق. سأله:

- طلعتم الأدوار كلها ؟

- الدور الثالث.. ثاني شقة، على اليمين.

- قابلوكم ؟

- مين ؟

- أهل الشقة ؟

- آه.

- أقصد.. من فتح الباب ؟

- واحدة ست.

يا للعذاب.. هل يسأله أطويلة هي أم قصيرة، بيضاء أم سمراء، مبتسمة وفرحة أم أنها استقبلت القريبة بترحيبة روتينية ؟.

هل هي من خالاتها أو بناتهن أم هي «حتى» ذاتها ؟!

فضل ألا يطّلع السائق على لهفته، اكتفى بمعرفة الدور والشقة، وأن بداخلها أُناساً، ولعل التي رآها تكون هي.

ولكن، ألا يعرف هذا الآدمي أن المراجل في قلب صاحبنا ؟

ألا يعلم أنه كان يتمنى لو أنهما تبادلا عينيهما لوقت قصير ؟

الآن...

شعرة واحدة هي الفاصلة بين بداية السيرة ومحطة هذه اللحظات الحاسمة.. لا يعلمها بشرٌ في الكون غير صاحبنا.

إننا حين نسمع حكاية حب بين فلان وفلانة، ثم نرى أحدهما، نتساءل بعجب:

وما الذي ذهب به إلى حبها كل هذا الحب ؟.

أو:

لا نرى فيها شيئاً يدعو إلى الحب.

أو:

يا للذوق الفاشل والانتقاء التيسيّ!

وهكذا قياسياً بالطرف الآخر، وكأننا نظن أن الحب اختياري إلى هذه الحدود، غير أن صاحبنا لم يكن من أولئك الذين يتحاسبون مع عواطفهم بالأقلام والمساطر، ولا بتحديد قانون «ماذا سأجني». لقد كان يتساءل كما يتساءل الكل:

«هل أسمّي هذا حباً، ولماذا ؟..» وكان يهرب حين يتصور نهاية غير مرضية.

نعم..

هذا صحيح، ولكن.. هل من شيء لا نهاية له، وهل ستكون النهاية، التي سيهرب منها في خاطره، هي ذاتها بزمنها ونفسيتها وظروفها، في الوقت الآتي الذي تكون فيه ؟!

صاحبنا يجيب مساءلة دواخله، حين يحاصره العقل، بأن النهاية ستعرف كيف تختار مكانها، وقد يكون لأحدهما أو لكليهما دور في ذلك، وقد لا يكون، وعليه فالأمر سابق ومعلق بـ: قد !.

- اسمع يا ولدي..

لا تفعل فعلة فلان. فعلته تلك تناقلتها الأشداق في كل بيت وواد أصبحت مثلاً. ألم تسمع قولهم: كما فعلة فلان ؟

- سمعت.. وما قصته ؟.

- استهوى قلبه واحدة من أهل قريته، وزاد مع الأيام شغفه بها، فكان يجيء إلى بيت أهلها لأسباب يختلقها، وكانوا جميعاً يحيطون بالنار في ركن البيت.. يستدفئون ويشربون القهوة الحارة بالجنزبيل، مثلما يفعل الناس في الشتاء.

جاءهم فلان هذا، وفي الجيب كعادته كيس صغير مضغوط بفراطة الدخان الأخضر، فقد كان لا تفارق اللفافة فمه، حتى إن ثيابه ولحيته وأصابعه تحسبها مدعوكة بالدخان، من رائحتها.

كان يقول: الدخان دواء الهم، وأنا معلول بخاطري.

وقتما وضع عجيزته على الأرض مع القاعدين حول النار، أخرج كيسه، وهيّأ لفافة ووضعها بين شفتيه، وكانت معشوقته تقعد قبالته إلى جانب أمها.

مدّ يده إلى مِلقاط الجمر، والتقط به جمرة من النار التي تتوسطهم، ثم وضعها، بخفة وشجاعة لم يعهدوها به، فوق ركبته، وراح يمنح حَوَل عينيه إلى التي جاء من أجلها.

وحين التذعت الجمرة ما تحتها، قام القاعدون لإزالتها. صاح فلان بقوة صوته: خلّوها تشوي ركبتي مثلما انشوى قلبي.

- وهل تركوها تأكل ركبته ؟!.

- لا تعجل.. يجيك العلم:

أزاحوا الجمرة، وصبوا ماء البرد فوق مكانها، وجذبوه إلى الجدار، وهو يهز ساقه ويقول مخاطباً نفسه: سلمْت يا فلان.. والله إنك شجاع، قدِرْت على النار تكويك.. بْكرة تقدر على قلبك في هواها.

- هل علم القوم من تكون ؟.

- علموا، بعد أيام من الحادثة.. جاء أهل القرية يعودونه في بيته فلقوه لا يقدر على تحريك رجله كلها. بقي متحسراً عاجزاً، إلى أن بلغ أرذل العمر، وقضى.

كان صاحبنا يدرج هذه الحكاية بخاطره، حين حدثه جده مرة بها لمناسبة لا يذكرها.

وكان السائق قد استأذنه لشراء علبة سجائر، من البقال الثابت عند مدخل الحارة.

أما هو، فقد أصبحت الدقائق في انتظاره كالساعات، ولعله ظن أن وقتاً يقاس بالساعة، قد مرّ بثقله على قلبه.

عاد السائق وفي فمه سيجارة.. سأل:

- أطلع أشوف.. يا أستاذ ؟.

- ننتظر.

عاد إلى الصمت. عبث بأصابعه في درج سيارته الأمامي، وأخرج بعد جلجلة شريطاً دسه، على الفور، داخل فم مستطيل قرب مكان الراديو. نط صوت علته موسيقى صاخبة، لأحد مغنيات الاستهلاك الجديدات.

سأله صاحبنا:

- كنت أظن الجهاز عاطلاً.. لم نسمع شيئاً، طيلة الطريق.

أجابه بأنه لا يريد إزعاجه.

(لا تريد إزعاجي ! والآن، ماذا تسمي هذه المطارق ؟)

لم يلبثا دقائق، حتى جاءت القريبة. بدت منكسة الرأس، بخطوات متباطئة.

فتح صاحبنا بابه، بمقدار خطوة، قابلها بين الابتسامة المفروضة والحدس الذي ينبئ بأن الأمر لن يكون على ما يرغب، ولكن هذا الخاطر الآخر كان يمانعه طيلة انتظاره في السيارة، فقد تساءل عن الإبطاء، وتساءل عن عدم نزول «حتى»، أو غيرها لإبلاغه أو دعوته.

وعلى أي حال..

فإنه لم يحدث نفسه بالصعود.. ولعلها بدورها كانت قد حسمت أمرها دون كلام معه.

سألها:

- لقيتيها طبعاً، تتجهز.. وتنزل ؟!.

- لقيت خالتها.. قالت لي إنها نزلت من الصبح.

- نزلت !

- أيوه، سافرت يعني.

- آه ! سافرت فين ؟.

- على بيتي طبعاً

- يعني.. تخالفنا في الطريق ؟!

- أكيد.

أشار إلى السائق بالعودة من حيث أتوا، وكانت الظهيرة تربض على الحارة الترابية، والمباني المتلاصقة الممتلئة بالناس في قيلولتهم، بينما كاد يختنق من ربطة عنقه، التي أهملها وفكّ أزرار قميصه، ثم ملأ بصره من خلف نظارته، بالمدخل الصغير المتهالك، ولم يتكلم.

** ** **

بدا الطريق طويلاً، وكان للمروج على جانبيه وللمروج على جانبيه وللأشجار طعم العادة. لم يتفوه أحد بشيء، وحين ضغط السائق على شريطه ذاك في آلة التسجيل ليغسل الركود، لم يكن ليأبه به، وآثر أن يتركه يأخذ دورته دون أدنى انصياع.

أما القريبة فكانت تتململ من حرارة الجو، وحلت عقدة منديلها، وهفت به كثيراً على وجهها السمين، وأخذها وسَن الإغفاءة بين حين وحين، ولم تستجب لليقظة الكاملة، إلا حين توقفت السيارة، قرب مدخل العمارة التي تسكن أعلاها.. وقتما التفت السائق، وهو يردد مرتين: «الحمد لله على السلامة، يا حاجة».

دعت صاحبنا للتفضل معها، وهي تعلم عدم قدرته على صعود الدرجات العليا، وكان يعجب من قدرتها، فاعتذر شاكراً، على وعد بالتأكيد أنه سيهاتفهم فور وصوله إلى فندق جار الديك، و.. مضى ليدخل في شرايين الغابة المزدحمة إلى غرفته.

طمأن سريرته بأن «حتى» قريبة الآن، بل إنها تكاد تكون بين يديه وعينيه.

تلك الطمأنينة جعلته هادئاً وواثقاً، ودليلها أنه حين دخل غرفته، لم يعمد إلى سماعة الهاتف. بل غمر بدنه بحمّام، وتمدد على سريره

دقائق، ثم ارتدى ملابس خفيفة، وهبط إلى المطعم، لكي يشرب الشاي الساخن ويدخن في الغرفة، وهو يتلذذ بصوتها عبر الهاتف.. بعدها يتم اللقاء.

فعل ما نوى، وحرك الرقم فكان مشغولاً.. انتظر وقتاً، وعاد يدير الرقم ثانية، وكان الخط ما يزال مشغولاً.

بعد نصف ساعة أو يزيد قليلاً، أدار الرقم.. قرع جرس الهاتف ولم يجبه صوت. اشتبه.. لعله أخطأ، وأعاد.. ولم يجبه أحد. تركه حتى استنفد كل قرعاته ثم توقف.

حدث نفسه أن «حتى»، ربما تكون قد هاتفته فكان هاتف غرفته مشغولاً.. فقالت تجعلها مفاجأة، وتحضر بصوتها وبدنها.

لعلها وقريبتها غارقتان في النوم بعد تعب السفر، وبعيدتان عن جرس الهاتف، وربما كان جرسه واطئاً.. و ربما.. و ربما، ألم يقولوا إن الغائب في غيبته الحُجة !.

انتظر ما بين الغرفة وهاتفها وشرفتها وحمامها، إلى أن اصفرت الشمس، واقتربت حمرتها مع أذان ديك الجيران، فأدار الرقم حتى فرط كل رنينه وسكت.

لا خلاف..

الأمر ليس صعباً كما كان. أقفل باب غرفته. ترك المفتاح عند موظفي الاستقبال، وخرج من الباب الزجاجي العريض، فواجهته حرارة لافحة من حافلة سياحية محشوة بنزلاء جدد أولئك الذين قرأ عن- رائحة عرقهم – في واجهة الفندق.

مشى إلى الشارع الخارجي، وركب سيارة أجرة، طالباً من

السائق التوجه إلى حيث مكان «حتى» وقريبتها، وعندما بلغ المدخل، قال له، إنه يريد أن يصعد إلى أعلى طابق في العمارة، ويقرع جرس باب الشقة المواجهة للسلالم، يخبر الحاجة أن صاحبنا ينتظر في السيارة عند البوابة، فقبل السائق على قيمة الانتظار.

بعد وقت، عاد ليقول: إنه لم يجد أحداً !.

- طيب.. سألت أحداً، حولهم ؟.

- أنا أعجبك. سألت كل الدور.. قالوا: لا يدرون.

عاد صاحبنا إلى غرفته، بعد أن اتفق مع سائق الأجرة على انتظاره بعد ساعتين ليجيء، ويذهب به المشوار ذاته.

انقضت ساعتان وجاء السائق، وإلى محطة مشوارهما الأول توقفا، وكانت الظلمة تغرق كل شيء، سوى نقاط ضوء شحيحة بقيت في مدخل العمارة، فبقي صاحبنا ينتظر كقطعة من فحم، حيث صعد السائق.

هرول نازلاً ليفيد بأن لا أحد، وأضاف بالمجان.. أن الشقة لا يبدو عليها أنها مسكونة أبداً.

قرر صاحبنا أن يبيت بغرفته إلى الصباح، وكما يقولون: فإن للنهار عيوناً، ولعل واحدة منها تمكنه من معرفة الأمر.

كان في الصباح قد تناول فطوره، وجرعات دوائه، وشرب الشاي الساخن، ولم يبق إلا أن يتصل، وبه أمل غير صغير بأن الهواتف ستجيب على طالبيها، فأدار الرقم، الذي حفظه كما يحفظ اسمه، ولكن لا مجيب.

حدث خاطره بأمور في شأنه عديدة، ولم يجد ملائماً غير الذهاب وطرق الباب.. لعل النهار يغير الليل.. ففعل. لم يأته سائق بخبر يقين.

ماذا يفعل ؟

ليت كل اللهفة بقيت حلماً، فالإنسان يستطيع أن يزوّق أحلامه كما يشاء.. لكنها حين تصادف حقيقة منطلقات ذلك الحلم إلى أهدافه أو بعض غايته، لا تلبث أن تكون المرارة غذاءه وجوابه الأخير.

وها إن صاحبنا قد مضى أسبوع قضاه بين الفندق والبيت، وبينهما الهاتف وسيارات الأجرة.

ولم يبق في محفظة نقوده ما يبقيه يوماً واحداً، في هذه المدينة الحلوة المرة، والتي يعودها بعد الإيمان بالقضية.

حزم حقيبته، ولملم أدواته وانكساراته إلى حيث جاء، حتى يكتب له بـ «حتى» لقاءً لا يعلمه.

الورقـة الثانيـة

الحقيقة التي لا يمكن إغماض الخاطر عنها.. أن صاحبنا عانى عناءً قاسياً، ولا يدري كيف يصفه وهو يتغذى على نفقة أعصابه وكريات دمه ومنابت شعره، فقد كانت الصدف التي لا ينفي مشاركته في صنعها، حتى ولو لم يعترف، قد عاندته مرارا تزيد على أصابع اليد، خلاصتها أنه في ذيل التردد والمحاولات وتخطي مخاوف صالات المطار الصقيلة، والضربات المطرقية الهابطة على صفحات جواز السفر، ومضخمات الصوت تنادي بالأسماء ومواعيد الرحلات.

ستة عشر شهراً بأيامها ولياليها واختلاط بياضها بسوادها.. مضين بالرغم من كل قمم الجبال، وصراع أمواج المحيطات، وتحولات العالم، وتصارع الأضداد، وتوافق المتنافرات بين الأقطاب، وبالرغم من الغياب الطويل، الذي وجد نفسه فيه، و وجد «حتى» في فتافيته الليلية كالحلم اللذيذ.

يتلقى صاحبنا مهاتفة قصيرة بحجم ظفر الإصبع.. مفادها أن السيدة المبجلة سألت، بعد معرفتها بظرفه الصحي، الذي تخطاه بنجاح، من أين ؟ لا يدري !

كيف علمت ؟

أهو صوتها أم صوت غيرها ؟.

وجد ورقة، عليها أن فلانة سألت عن صحتك، على مكتبه في البيت، إلى جانب أسماء عديدة سألت للسبب ذاته، فهمهم وصمت، لكنه علم علم اليقين أنها لا تزال تعيش وفي داخلها شيء

مستح.. فأهلاً، ولـ «أهـلاً» في ضلوعه تراجم لا ينطقها إلا فعل واحدٌ: السفر.

ردد صاحبنا قول الشاعر:

و إذا كـانـت النفــوس كبــاراً

تـعـبـت في مـرادهــا الأجســامُ

فها إنه يحيا مرحلة النقاهة. يقطع عهداً بأنه لن يخالف جداوله الصحية، وها إن طموحات كبيرة تتعدى إمكانياته جميعها ،أقلها بساطة: الجسدية، فقضى زمناً شتته بين «التي واللتيا» في مناسبات ومصادفات وواجبات ومداهنات، ووواهم نبضه المجنون، بأن الصفة الملائمة لحالته المتعلقة بـ «حتى».. هي صفة مجنونة، وأنه داخل سياج بالغ في وهمه، وتجاوز حدود المعقول.. فلله على من يهيئ لعنقه الضرب، أو لمن وضع بيده وهج الجمرة على ركبته لتحرقها حرقاً لا شفاء منه و لا بُرء في خاطره، كما فعل ذلك القروي، الذي روى جده حادثته ذات يوم.

على أي منقلب كان الحال.

فقد كان حال صاحبنا، وهو يحدث مرافقه، في وضع يشبه بركة من الماء تراخت في الهدوء، ثم ما لبث الهواء أن شعّث طمأنينتها، وقتما وجد أن للتدخين خطراً في المنطقة التي جلسا فيها على مقعديهما، جانب المقاعد المزدحمة، في الطائرة المسافرة، حيث تسكن «حتى»، وهذا أمر يحدث على الغالب.

ما كان من شأن صاحبنا، إلا أن عابث حالته ببعض الكلام الصامت، فالامور التي تسير على غير الرضى ليست دائمة، وهذه

الحساسية الطاغية سوف يريها الزمن بقساواته.. التصالح مع الأمور، وإلا..

وتساءلا: لماذا لم يبلغا أثناء حجز تذاكر السفر، أو قبل الجلوس، بأن منطقة مقعديهما لا يجوز فيها التدخين ؟

استعان صاحبنا بأحلامه، وباللحظة التي سيتم فيها لقاؤه بـ «حتى»، وبأشياء من هذا القبيل، فكان كأنما يقضي مهلة قسرية بعيداً عن التدخين، وكان له أن تحايل على رغبته المصدودة.

حاور نفسه طويلاً حول تساؤلات، كأنما تبدو له للمرة الأولى، ولم يجد أجوبة مقنعة عليها:

- (لماذا تحبها بالرغم من البعد الفاصل في المكان، والذي يباعد بين ضرورة اللقاء النفسي، أو ما بعد النفسي ؟

- لماذا هذا الحب المجاني، وأنت تفارقه دون ردّ منتظر، فمرة يجيء كتلويحة يد في الفضاء، ومرة يجيء ذلك الرد، كما يجيء عطر صباحي من هفهفة ثوب لا طريق لك إلى لمسه ؟

- لماذا تختار عذابك اللذيذ المر، وما هي النهاية ؟

- ثم لماذا لا تكون جريئاً مع وقوعك هذا، فتعلن أنك مبتل بالوهم والرغبة، وبالنقاء وأمانة الحس، وبالحلم والركض والسرابَ، وبأن عوامل، كمثل هذه، لن تزيد الشارب من بحر الأجاج.. إلا ظمأً؟!)

رأى صاحبنا أنه يتنبه من حلم، وأن حلمه تسرب عميقاً في أقواس أضلعه. فكر أن يذهب خلف اصطياد الأجوبة.. الأجوبة التي ربما وجد بعضاً منها بين يديه دون عناء.

ألسنا، حين لا يرضينا جواب حال، نوهم ذاتنا إلى حد تصديق الوهم والافتراض، وأحياناً النقض الكامل للحقيقة المفترضة، وذلك بافتراض توقع يريح قلقنا ؟!

نعم..

كم نحتاج إلى مثل ذلك الافتراض، وكم كان صاحبنا سعيداً وهو يتنقل بين افتراض وآخر، يجد فيه راحته.. الراحة المنبسطة التي تفتح كفها لاحتضان الركض المضني.

الآن..

أعلن ملاح الطائرة عن الاقتراب من الميناء الجوي للمدينة المقصودة، وقدمت بطاقات الاستبيان الشخصي، ومكان السكن والعنوان والقصد من الزيارة.

لا خلاف !

هنا في هذه الورقة ذات المربعات والمستطيلات المسودة، يستطيع المرء أن يسجل أحلامه بدل رغباته في غدق العيش والمسكن والمقصد، فلماذا لا يسجل صاحبنا بيانات أحلامه التنقلية في ظرف السفر ؟

واستوقف مرافقه، الذي تولى تعبئة البيانات بصورة مطلقة، فهو المدرك جيداً لحاله.

غير أنه، وبنزف انتقامي طبقي، طلب من مرافقه أن يكتب في خانة العنوان والمسكن، حيث يقيمان في المدينة التي سيحطان بها، أكبر وأشهر وأغلى فندق بها.

أما «القصد من السفر» فأملى عليه الآتي:

(ظرف خاص).

لكنه فكر فتردد.. أي خاص سيفهمه مدقق الجوازات ومن بعده؟.

فعاد يملي:

(ظرف صحي).. يعني للعلاج. كم يود من داخل قرارته لو وجد تعبيراً حقيقياً يريحه، أو يريح أمانته مع ذاته ؟

كم يود لو يكتب: (رومانسية، فعقل) أو (حمى جنونية)، أو.. أو.. لماذا لا نتحدث عن غاياتنا ومقاصدنا الحقيقية بأمانة ؟.

ولماذا، إذا تحدثنا عن بعضها في خجل، ندخل في اشتباكات، ومتشابهات، كأنه حرام علينا أن نعلن عن صدقنا الخاص بنا، فنخاف ونلعن الصدق ولحظاته ؟!

صاحبنا لم ينوِ السياحة كما يفعل الغالب من المسافرين، إن لم يكن الكل.

ولا العلاج، ولو توجت رأسه عافيةُ من لا يحس بها.

ولا إلى امرأة يتزوجها أو يطلقها.

أليست «الأعمال بالنيات» كما تعلم منذ لين الظافر ؟

فليترك له عنان النية، ولو كان الكذب يُعلّم له وللملايين في كل يوم عشرات المرات.. أليست النجاة ؟

على العموم والهموم..

فمال له وللتعطيل، فلو وقف عند تفصيلة كهذه عابرة كالسلام عليكم، فلن يحيا يوماً أو بعض يوم.

و..

أُعلن إرشاد ربط الأحزمة وما يتبعه. يعني أن الأرض ستتلقف هذا الطائر الكبير. يعني أن احتمال اللقاء سيكون بعد ساعات، أو أيام، أو لا يدري فربما لا يكون، أو... لقد بدأ في دوار تتناهبه فيه الشكوك.

عندما «هبطت الطائرة تماماً»، كما يعلن القباطنة في آخر الرحلات، تناوله العناء.. العناء الأبدي، الذي يرى صاحبنا انه لن يفارقه في أسفاره، تلك الأسفار المترددة المؤجلة القليلة.

لقد أجاب مراراً على سؤال تافه ومقلق في آن، يتخذ صوراً لا تتشابه في سبب التعب، الضجيج المتغلغل بين خطوط إرساليات جهاز البدن العصبي.

نعم..

إنه سبب ضعف البدن النحيل.

لا..

بل بسبب عدم احترام المسافرين للنظام، ومزاحمة الأكتاف، فالطويل يغلب على القصير، والبدين على النحيل، وقوي البصر على ضعيفه، وصاحب العقل المغزول بِهَمّ المعدة وأطياب الطعام.. على صاحب الهم الذي يتجول بين هموم الناس، بدءاً من إصبع القدم، وهكذا.

لا . .

بل بسبب قلق الصالات والجوازات والنداءات والأختام، وقائمة الممنوع والمسموح.

بسبب كل هذا وغير هذا، مما يرغب في التداعي به، وعلى أي حال جاء التعب، فقد عانى صاحبنا، معاناة المرتقب لزوال الكربة، حين يرمي سالك البيداء دون هدى بأقصى ناظريه، فلا يردعهما من أدنى قدرة لالتفاتة الرأس إلى أقصاها.

و . .

تمت تخطيات الأتعاب، وقد زيد فوق همها زائدات لم تكن ببال، وها إنه الآن يعيش ظرف الشاعر البدوي الهائم بحبيبته، حين لقيها ببطن جائعة، وجوف محترق، وقدم فركتها حرارة السفر، ولسان هتك به العطش فنسي أشعاره التي أنفق فيها كنز مدائحه للتغزل في ثغرها، وجمع في وصفها كل معنى شارد.

صاحبنا لا يكره أمراً، في تلك المدينة، ككرهه للمفاوضات، وفيضانات الكلام، التي تُكال بالأطنان عند أتفه الأحوال، وهو لا يفاوض، ولا يزاود، ولا يخاتل في القول والمبتغى، ولا يجيب على الإسباغ في ثرثرة اللسان، إلا بالإيماءة أو الصمت، الذي يحسبه الآخرون نهاية القبول.

فما أتعسه، وما أشقى ما يقابله من الأتعاب.

لماذا لا تحدد الأسعار ؟ هذا سؤاله الذي لن يجد جواباً عليه.

إنه يريد تحديداً لا إشفاقاً، حتى من عابري السبيل، يريد من ماد اليد، أن يقول بالتحديد، دون مقدمات استرحامية تَخِزُه في قلبه

وأُذنه وضمير العالم بأجمعه.. يريده أن يقول: أعطني كذا، درهماً أو ديناراً، أو دونقاً، أو قرشاً، أو منديلاً ورقياً، أو كلمة بعينها، أو لا يقول..

أو لا يحب مطلقاً، أن يرى اتكالية العالم الثالث في هذه الأنماط التي يسيح لأشكالها نبض الدم والعطف والتألم.

لماذا يشحذ صاحب الحق و«اليتيم» و «ابن السبيل»، والعاطل عن العمل و.. و.. ؟.

لماذا ؟

لماذا يتواجد هؤلاء إلى حد الإسهاب، ثم نشهر سلاح ألسنتنا، في محاربة «التسيب»، و «عدم الانضباط» و» قلة الإنتاج والاتكالية«؟

كان وجه «حتى» يأتي بين سؤال وآخر، كالابتسامة المباغتة، وكأنه الجواب الكامل على جميع الأسئلة المرة، التي تستقر كالعرفجة أو الزقومة فوق اللسان.

ولكن..

حين نسمي الكلام كلاماً.. ألا يحتاج هذا إلى منفّذ نهائي.. إلى صوت، ولسان، وأشكال تعبيرية من اليد، والوجه، والنظرة، وانفعالة الحاجبين وما بينهما وما فوقهما وما تحتهما ؟ !

نعم..

هكذا يحتاج الكلام ؛ ضمن إمكانية الأعضاء البشرية التلقائية.. دون أي عامل اختراعي مساعد.

فهل كانت «حتى»، على حين تتربع على ضفة الخاطر في ذاكرة صاحبنا.. تتحقق، ولو كضوء قمر بعيد على زجاج ماء النهر؟!

ليس مهماً الآن..

فالطريق إليها غير بعيد، وغير محدد، وليس غريباً، فكل شيء هنا غير محدد، سوى الغايات و الآمال.

** ** **

في الطريق العريض، الذي يمضي كقناة سوداء تتسلل بين الأشجار والمباني، كان سائق سيارة الأجرة يدخن كثيراً، وفي كل سيجارة يفرزها بين شفتيه المبرطمتين، يعزم على صاحبنا. كان صاحبنا يجلس إلى جانبه، بينما انبسط المقعد الخلفي ليعطي كل راحته العريضة للمرافق، وكانت عينا المرافق الودود توزعان ملاحظاتهما الخاطفة بين السائق المدخن وبين السرعة المتجاوزة، التي كانت تجعل الأشياء المحاذية كالصور المتقافزة.. مثل شريط مصور يعاد إلى الخلف بالمرجْع السريع.

عندما توقفت، بعد زمن، السيارة.. عند أول إشارة للمرور، وقفت سيارات كثيرة على الجانبين، وأطلت كلبة بيضاء بحجم القطة من سيارة بيضاء، فأخذت تهرّ بصوت خفيف. نهرتها صاحبة السيارة، منادية باسمها «بوسي». لكن «بوسي» لم تستجب لدعوتها، وراحت تهز ذيلها القصير، وقد استبدلت هريرها الخفيف بنباح متقطع. حسب صاحبنا أنها تريد منه شيئاً ما.

علق سائق السيارة الأجرة: «ناس فاضية». لم يلتفت صاحبنا، لأنه قرر ألا يلتفت. لكن «بوسي» زادت من نباحها، وكذلك زادت

إشارة المرور من مدتها، أو حسبها كذلك، وعندما تبدلت إلى الضوء الاخضر، مرقت السيارة البيضاء في المقدمة، كأنما تريد أن تثبت عنفوانها.

ومضى خلفها، من بعيد، سائق التاكسي بسيارته العجوز، وسيجارته التي تكاد تنطفئ، وكان صاحبنا يترجرج إلى جانبه بهيئته العصفورية الوديعة، وشاربه الذي يكاد يأكل نصف وجهه.

قال مرافقه للسائق بفضول مباغت:

- الشوارع نظيفة، والزحمة قليلة.

فأجابه السائق بسؤال:

- منذ متى لم تأتِ إلى هنا ؟

- يعني.. زمان

- آه..، اليوم الجمعة.

اتضح أن الزحام يخف في أيام الإجازات، أو على الأقل -كما يبدو في يوم الجمعة-.

كان هذا الحوار القصير قد ورد على هيئة تحريك الجمود اللساني الممل، حيث انجرف بعده صنبور من الكلام، تعرض لمكان النزول، وسبب المجيء، وتوابع أخرى جرّ بعضها بعضاً.

كان لصاحبنا فيها نصيب المستمع، وكان بصره المتعب يجهد طاقته في تتبع الوجوه النسائية، التي تتشابه من قريب أو من بعيد، مع وجه «حتى».

أدرك بالخبرة أن المرء، حين يوله بشخص ما، فإن صورته أو صورة بعض تفاصيله وأحياناً أدقها، تكاد تتوافق مع وجوه أو مواصفات أشخاص يقابلهم، أو يشاهدهم من بعيد.

وراح يرابط بين «حتى» وتلك المرأة الحميمة، بوجهها الكمثري العريض، وعويناتها الزجاجية الوديعة، ولسانها الأليف، الذي ربما كان سبباً مستتراً، وراء ميله لـ «حتى».

ثم استعرض وجوهاً عديدة، تمثلت، وتشابهت، واختلفت في التطابق والطباع واللسان.

ألم يتخاطر ملياً مع ممرضته، حين تلمس في وجهها وحركة يديها شيئاً من هذا التشابه الأليف، فرأى فيه وجه تلك الحميمة ببلده، ورأى فيه وجه «حتى».

(دعنا من المقابلات العينية، فقد استقطبك، في الصورة التلفزيونية، وجه المطربة الفلانية، الشبيهة بمقصدك والمرام ؟).

ما أكثر الوجوه حين تبصرها من بعيد، وما أقلها حين تطابقها بمن تحب.. بل ما أندرها. استدرك وداخله يغني كلمات أغنية، على مضض:

«يا شبيه صويحبي حسبي عليك..».

و..

توقفت سيارة الأجرة عند باب الفندق، بعد أن كافح سائقها في الزحام والتقاطعات والإشارات والضجيج وتدخين السجائر والصمت، الذي احتل أكثر من ثلثي المشوار، وأخذت بعد ذلك المفاوضة الكلامية بينه وبين المرافق حول الأجرة، مما أدى بصاحبنا،

إلى الهروب بعيداً عن هذه المزايدات، التي يتحاشى عذابها، إلى داخل الفندق ذي المدخل الشحيح الضوء، وكأن لا ناقة له في الأمر ولا بعير.

كان الفندق من ذلك المستوى السياحي المطلوب، فهو لا يرهق في الأسعار مثلما تفعل فنادق الطبقات المنتفخة، ولكنه لا يخلو من تواجد أولئك الذين تشبه روائح عرقهم رائحة بول القرود، كما قرأ عنها.

قعد صاحبنا على كنبة صغيرة في المدخل، منتظراً مجيء مرافقه بصحبته جوازات السفر. قليلاً و.. دخل، وفي يديه حقيبتان، إحداهما أكبر من الأخرى، ولم يكن أحد بقادر على قراءة أي انفعال على وجهه.

لم يشغل صاحبنا شاغل، منذ أن وجه نيته للسفر، كانشغاله بالوسيلة التي يقابل عن طريقها «حتى»، غير أن ما يستند إليه هذه المرة، خلافاً لما مضى، هو يقينه بأنها موجودة في هذه الدنيا القريبة، ودون شك سيبدأ باستخدام الهاتف.. الهاتف الذي حفظ أرقامه، ولن ينساها أبداً.

كان الوقت ظهراً، وكانت القيلولة تهبط على الصدور كالمظلة الهادئة، فليصعدا إلى غرفتهما المقابلة للشرق في الطابق الثالث، وليبتردا بماء الحمام، ثم يسترخيا قليلاً. بعدها.. ليفكرا في أمور الغداء، ونواقص الغرفة المزدحمة، والخروج إن شاءا.

هذا رأي مرافقه، أما صاحبنا.. فكان يوافقه على غير رضى، فداخله يملي عليه بإلحاح، أن يجرب أولاً الرقم المحفوظ.. حينها يستطيع أن يبني قراراته ومخططاته الآنية والآتية.

بقي يراقب جهاز التلفون الرصاصي. يتردد في رفع سماعته، لعله لا يعمل.. لعله إن عمل لا يلتقط الرقم المطلوب.. لعله إن التقطته لا يجد من يجيب على جرسه.. لعل، ولعل، وبقي وقتاً مع اللعلَلَة حتى خرج مرافقه من دورة المياه، وكان الماء يتقاطر كالبثور الكبيرة من جسمه الطويل، وقد ترك الباب خلفه مفتوحاً.. وقتها بالضبط، نقر جرس الهاتف بقوة، فذهبت أول

«اللعللات». رفع سماعته متردداً مندهشاً مرتبكاً:

- آلو..

كان يبدو على صوته التعب والجفاف والهدوء.. موظفة الاستقبال تتأكد إن كانا في الغرفة. لا يدري لماذا ؟، ربما لشأن وظيفي يتعلق بعملها.. ليس مهماً المهم أن الهاتف يعمل، وبجرس قوي، ونقاء في الصوت.

فتح الحقيبة، وأخرج فرشاة الأسنان والمعجون، وقطعة صابونة مغلفة بورقة وردية صقيلة، طبع عليها صورة حسناء بشعر مبتل.. كان معها في مراحل سابقة، حين يقفل على وحدته شأن، ووضع معها نظارته على لفافة المنشفة البيضاء، التي أخرجها على التو أيضاً.

ارتباك في العادة.. كيف يتلمس الطريق إلى الداخل دون نظارته. مد يده قريباً فالتقطها، وثبتها على أنفه، وتوجه بكامل ملابسه إلى دورة المياه.

لقد كان يهرب من «لعل» الأخرى، فهو لا يرغب في تجريب الرقم مع الهاتف، فمن يدري إن كان سيجيب. ليروِ بدنه بالماء والصابون

ذي الغلاف الناعم أولاً.

عندما خرج، رأى مرافقه لا يزال منحنياً على إطار الشرفة، ووجهه نحو الشارع.. سأله إن كان طلب شاياً، فأجابه دون التفات بنعم. تراخى على ظهره في السرير، عاقداً يديه خلف رأسه، وتراخت نظارته فوق شاربيه العريضين، حتى كادت تغطي أنفاسه.

طرق الباب، فقام صاحبنا ليفتح على ثقل، لكنه ما لبث أن فتح دون حاجته، ودخل نادل نظيف، وبين يديه صحن معدني مستطيل، على مساحته حوائج الشاي.. تحركت في صدره مسرة صغيرة لا يدري ما مبعثها. أليست جميلة تلك المسرات التي لا تلزمنا بأسبابها وشروطها ؟! إنها دوافعنا السرية، التي تمدنا بالحياة، أو بالقيام بواجباتنا التفصيلية على مدار الساعة.

هكذا كان صاحبنا يحدث داخله، كلما توقف عند أي أمر قصير، لكنه يفقد مسراته الصغيرة، منذ أن يتذكر أن عليه أن يحياها بقصرها أو طولها.

اقترح مرافقه أن يشربا الشاي في الشرفة فوافق. الهدأة القيلولية في الخارج.. نسبية ولا تستحق حرارة الظهيرة المتسربة للشرفات أن تمنع جلسته لشرب الشاي.

(قلنا..توقف عن محاسبة التفاصيل. هل هو شرب شاي أم قضية «الووترجيت»؟ إلى متى نؤمن بأن الأشياء التي تسير في رضانا، نسعى نحو توظيفها عنوة وتعسفاً لمصالحنا، ثم لا نطبقها ؟)

أخذ علبة سجائره، وخطا إلى الشرفة.كان إحساسه هناك جهة الهاتف، وعيناه وصوته مع مرافقه، وكانت هناك رغبة اختيارية في

محاولة تأجيل الاتصال (ما أصعب الأشياء حين تتحول إلى إلزام الواجب) إنه ليس واجباً إلزامياً، لكنه ما يشبه المبرر أيام محاسبة الذات. كان يشرب الشاي الثقيل مع مرافقه، ويدخن، ونثار من الكلام الذي لا يجمعه جامع يترنح بينهما دون تحديد.

استأذنه مرافقه للنزول إلى قاعة الفندق. لم يتفقا على وقت للغداء.

بقي صاحبنا يدخن في بطء و.. سرح:

(ألا يرى أنه بالغ في محبته لـ «حتى»، وأن الأمور قد تأخذ شكلاً ضدياً.. أي أنها تنضح بفائضها، فتفقد منسوب توازنها ؟!

ربما، لا خلاف..فهو لم يستطع وضع معيار لضغط نبضه، ثم إنه يجد أن نصفه المنفصل في «حتى» لم يتجاوز يوما ما، حدود اللياقة الإنسانية.. بل أنفق وقتاً عبر العقد الماضي، منذ تعارفا، في تعديل كثير من المفاهيم المترسبة، التي تمت عليها حول ماهية المرأة، ودورها الاجتماعي المستغَل، وإنسانيتها الملغاة، وظل في كل مناسبة يساويها به، في مواضع شتى، حتى أخذت تتشرب بيسر ما يقوله، وتتفاعل معه بقناعة، وكأنها تتنبه من كابوس حلم خانق.

آه..

أحب أن يزرع في عينيها كل معنى جميل، وكل ما يبعث على الثقة والمحبة والعدل، ولم يقسها أبداً بمقياس رجل يتخير الجسد اللائق للذاته.

إذاً..

صنعها من همه وغيرته وحبه.. صنعها كإنسانة واثقة حرة أولاً،

وبذل في تزو يق عينيها الناظرتين إلى الحياة، كل النفائس التي لم يبخل بها عليها.

يا رب !

ما أصعب عذاب المخلصين في عواطفهم، الصادقين في نواياهم وتعاملهم.. ما أصعب غيرتهم وحرقة آمالهم !

ما أصعب جنونهم غير المبرر، ذلك الجنون، الذي قد يحسه من يسمع به، جنوناً ذليلاً أو قاصراً. إنه يخاف عليها من نسمة الصيف حين تعبث بشعرها. يخاف على يديها الوديعتين الظريفتين من العيون. يخاف، ويتألم، ويجرع المرّ و يتعذب، ويلملم جراحه النازفة بالشكوك.

ألم يدفن وجهه وأنفاسه ذات يو م في ملابسها المعلقة وهي لا تدري ؟

ألم ينتظر منها المقابل، ولم يسألها ؟ حسب أن الزراع، مهما تعب وشقي في عنايته بزرعه، سوف يرى ثمرة جهده، لكنه اكتشف، مع توالي الأيام، أن مقولة «من جد وجد، ومن زرع حصد»، لم تأت من قائل مجرب، و ها إنه يتلمس بكل حواسه معناها الفعلي الكاذب.

جلجل جرس الهاتف قوياً وطويلاً، فانقطع صاحبنا إليه:

- آلو.. نعم.

- أنا في المطعم، ما رأيك في الغداء ؟

كان صوت مرافقه يدعوه للغداء، فوافق، واقسم في داخله أنه،

ولو تمادى، ليس غبياً، ولا صغيراً، ولا مملوكاً إلى حد الغياب.. ثم عدّل هيئة ملابسه وهبط عبر المصعد إلى مطعم الفندق.

هنا.. وفي هذا الركن، وعلى هذه الطاولة الخشبية العتيقة، والمقاعد البنية الملساء، كان يجلس صاحبنا، وأمامه امرأة غضة القسمات، بوجه كمثري ممتلئ، وعينين عميقتين كعمق المحيطات، لا يعذب صاحبنا فيهما إلا الغيرة والمحبة الإنسانية والدفء، عينان ليستا كتلك النبالية اللائي يقتلن الأحياء.. بل يحيين الموات، ويحيين كل أعشاب الأرض الميتة.

هنا يبذر صاحبنا قطر أمطاره:

- اسمعي يا شغاف سكينتي. في الزمان القديم، كان الإنسان حراً طليقاً لا تشتريه

الصفقات والمخططات، ولا يثني جذعه أمام خشخشة الدولار والجنيه والمارك والين.. كان ينّاته ودولاراته في يديه وقدميه، ومحبة قلبه، ونواياه الطيبة، وكان للأمور عنده موازين عرفية، فالكرامة لا تقبل البيع، ولم تعرض ذاتها يوماً لسوق النقد الدولية، ولم تضارب يوماً بأسهمها ذات القيمة العالية أو الرخيصة.

وكان على الإنسان السلام.

تضحك على حياء:

- وعليك السلام.

لم يشأ أن يغوص بذهنها في التفاصيل، فقد كان يدرك أن قليلاً من قوله لن ينطبع في ذهنها، لكنه يثق بأنه سيخلق فيها الأسئلة:

تسرح بعيداً في نظارتيه، وتموج بعينيها العميقتين السوداوين، فتهز مسرة مفاجئة في صدره، ثم يستدعي النادل طالباً فنجانين من القهوة، التي يتساويان في مستوى سكّرها، ويقترح أن يؤجلا الحديث.

بعد أيام اتصلت به ملهوفة، تبشره أنها وجدت عملاً مناسباً.

- مبروك.. أين ؟

- في شركة إعلان، وسيعطونني نسبة مئوية.. فوق المرتب،

- مبروك.. متى نلتقي لنتفاهم ؟.

- خليها، بظروفها.

جواب مائع . يريد أن يعرف تفاصيل العمل. ماذا يعني حصولها على عمل في شركة إعلانية، بهذه السرعة، دون عناء يذكر ؟.

لم يمض أكثر من أسبوعين، منذ قررت البحث عن عمل، في هذه المدينة الاستهلاكية المختلطة.. لم يجد طوال الشوارب من حاملي الشهادات الجامعية المتخصصة أعمالاً، حتى ولو غير مناسبة.

قعد صاحبنا وقتها، يباعد ويقرب في أسئلته وشكوكه. إنه سعيد حقيقة، لأنها ستحقق ذاتها في العمل، وهذا يعني أحد إنجازاته النظرية في حق المرأة المشروع في الحياة، يعني أنها لم تقتنع بكلامه فقط، بل سعت في تنفيذه كما يجب ؟!

أمر طيب، لكن ! لكن، في شركة إعلان ؟!

نحن نجيد الكلام، ونحسن التنظير، ونستطيع إقناع الآخرين، لأننا نؤمن بما نقول.. ربما.

غير أننا لا ندرك مرارة فعل التنظير، عندما نتواجه مع موضوعية التطبيق.

و.. الخلاصة ؟

ماذا تريد أن تقول بالضبط، هل تخاف عليها من هذا الصنف من العمل ؟، وما نوع هذا الخوف ؟ أهو خوف على كونك تحرص عليها كمقتنى إلهامي خاص جداً، وبدوافع الغيرة والحب.

أم خوف عليها من الانجراف بتلقائية خلف الفكرة الدعائية ؟ !

كن شجاعاً وقل. واجه مخزونك المترسب في قرارة تاريخك كرجل، كرجل في مجتمع ذكوري نشأت ورضعت تفاصيل قناعاته، التي ترفض أغلبها رفضاً مقنعاً صادقاً.

واجه سلبية هذا المخزون، وأجهد في نفض تراكماته المعطلة لرحابة الإنسان وخيره وتقدمه.

إذاً..

فالأمر يحتاج إلى التغلب على شيء من الذات الغيورة، وإلا فابحث لها عن عمل يرضيك قبل أن يرضيها.. أو قل: فابحث لها عن مجتمع آخر، ومؤسسات عملية كريمة أخرى.

قرر صاحبنا أن يبتلع لسانه، وألا يفسد عليها فرحتها بالعمل. عندما التقيا.. لم يبد لها سوى الرضى والمباركة.

كانت تحدثه، برغبة وحبور، عن تفاصيل عملها، وكان صاحبنا يومئ برأسه، ويتحسس شاربيه، ثم يمنح بسمة مقتضبة، ملطفاً بها جو القعدة التي اختاراها في هذا الركن، هنا، على هذه الطاولة

المطلة عبر الزجاج المموج نحو الشارع.

إنه يعلم الدهشة الفضولية، التي تحتل اهتمام الفرد وقتما يدخل في عمل جديد، أو مناخ جديد، أو حتى تجربة جديدة، فكان يساير حديثها: «آه.. صحيح.. بالله؟، عجيب!.. تمام».

ومع أن بعض المقاطع التي تمنى لو يحذفها، كانت تمر على صدره وسمعه كثقل القطار على القضبان المدعوكة، خاصة عندما ذكرت أن المدير يرغب في تبديل سكرتيرته، وأنه قدم لها، بمناسبة استلامها العمل الجديد، (هذا القلم). قدمته بين عينيه، ولم يكن يشاء أن يتفحصه، لكنه آثر ألا يكسر نشوتهما قلم دعائي وأنيق. ابتسم، وصمت.

إنها ليست صغيرة، وليس من السهل أن تمنح سكّرها لأي كوب شاي، ولكن، يا أبا زيد.. أليس لهذه التغريبة الهائمة محطة أخيرة؟. ما الذي تريد أن تصل إليه معها؟

الجواب.. لا يدري. إنه يحبها ويخاف عليها، ويريد أن يراها أحسن وأجمل وأوثق النساء ذاتاً وروعة.

وهي..

ما هي آخر محطة في نظرها؟

صاحبنا يعلم: التعرف بشخص مناسب، أو شبه مناسب، ثم.. الزواج منه. سيكون هذا، اليوم أو ما بعد اليوم.

قالت له، في مناسبة موضوعية، إنها، سداً لعيون الناس وأفواه الناس، تريد أن تتزوج.

يا للعذاب.. ماذا يقول.. هل يوافقها ؟ وسألها:

- هل تحبين الارتباط برجل ؟

- مدت يدها إلى فمه كأنما ترد قوله:

- أنا لا أحب الزواج كزواج.

- وهل ترغبين في الزواج بلا زواج ؟

- والله، أنت عجيب.

لا شك أنها ليست بتلك التي يمكن أن تكون واثقة، إلى حد صنع القرار بحكمة ودراية. يا أخي.. مثلها مثل البنات الحالمات، وأخيراً.. الزواج!. وهل تريدها أن تبقى أسيرة أحلامك وهيامك وغيرتك ؟ وبعد!!.

لم تزد، ولم يزد صاحبنا. ربما أدركت أنها سيرة تحتاج إلى مواجهة. أليست المواجهات، التي تعتمد على انتزاع الحقيقة من الذات، جارحة ؟.

نعم..

ولكن، لا بد من هذه «الجارحة». كيف يتصورها بكامل عنفوانها وجمالها بين فخذي رجل ؟!.. يا للصاعقة ؟

إن صاحبنا لا يستطيع أن يطردها من تصوره، وهو يزاول ما يزاوله ذكور البشر مع إناثهم، فهو حينها يحيا عراك النزعة مع ماثلتها، بينما يكون ذهنه هناك.. هناك حيث فتنته ولهفته وقرانه الإنساني الحالم، حيث «حتى».

و..

بالرغم من أن قوادم الأيام قد شتَتت كل الصور، وأعادت تركيبها مئات المرات، ووضعت الأشياء في أماكنها دون أن تستشير سواد عينيه، غير أن الأمور حين تجري دون مراعاة العواطف، إنما تؤكد أن المراكب الراحلة في الأسفار لابد، إن لم تحطمها الأمواج والرياحات أن تستريح في مراسيها. وعلى أي كانت المرساة..

فقد تناول صاحبنا مع مرافقه طعام الغداء، وآثرا أن يشربا الشاي في غرفتهما.

حين فتحا باب الغرفة كان جرس الهاتف يعجّ في المسامع. أقدم إليه.. كاد يتعثر بطرف السرير:

- آلو.. نعم.

- يا أستاذ، رسالة لك في الاستقبال.

- ابعثيها، مع الشكر.

لم يتوقع أن تكون من «حتى» ولا ملحقاتها.. لعلها من صديق علم صدفة انه هنا، فالعادة منذ القدم أن يكون منزله الدائم، وقتما يجيء من السفر، في هذا الفندق. أخذ الورقة.. كانت مكتوبة بقلم أزرق جاف.. استطاع أن يقرأها. لم يكن مكتوباً عليها اسمه، ولا رقم غرفته. في وسط الورقة كتب بخط سريع، وبالعبارة التقليدية: (حضرت حسب الميعاد ولم أجدك) التوقيع سلمى.

سلمى!.

سأل بالهاتف موظفة الاستقبال عمن جاء يسأل عنه. قالت إنها لا

تدري، لكنها حين استلمت ورديتها، قبل قليل، وجدت الورقة في مكان المفتاح.

إذاً.. ربما بالخطأ دون شك، فمتى ضرب موعداً مع سلمى أو ديارها، وها إن ساعات قلائل، لم يمضين على وصوله.

قلنا، إن صاحبنا لم يتوقع أن تكون من «حتى» بأي حال، وإذا كان لابد أن تكون من أحد، فربما كانت من صديق توقع وصوله، أو لم يتوقع، ولكن خطوته مرت به بالقرب من هنا. هذا التوقع قبل أن يقرأ الرسالة التلغرافية.

لكن..

أنى لصاحبنا أن ينزع من ذاكرته صورة «حتى»، حتى في مثل هذه الحادثة التي ربما مرت كما تمر دقائق يفرش فيها المرء أسنانه ؟ !

لقد ذهب وراء توقعات لا رأس لها ولا قدم:

ألا يمكن أن تكون قد فعلتها بدافع الفضول ؟ إنها كما تعرف أسماء أصابعها، أن صاحبنا يختار أولاً ودون تردد..هذا الفندق وليس غيره، بل إنه يكاد يكون عنوانه في هذه المدينة، ومسكنه وراحته. موظفوه وعاملوه يعرفون غرفته المفضلة بالطابق الثالث، المطل مباشرة على الشارع، الشارع التفريعي حيث يقع مبنى الفندق. مكانه المفضل بالركن القابع خلف الزجاج المموج.. قهوته بسكرها المتوسط، مواعيد وجباته وأنواعها. بين زمن وآخر يأتيهم اتصال أو أكثر للسؤال عنه.. ربما جاء.. ربما يجيء.. ربما عرفوا عنه ما لم يعرفه المستفسر. أصدقاؤه بعضهم ليس غريباً على أحد.. يعرفهم موظفو الفندق.. يخبرونهم عنه دون سؤال.

.. ألا يمكن أن تكون «حتى» قد علمت، فأرسلت - لانشغالها - زميلة لها تسأل، فنسيت وكتبت اسمها ؟

ولكن الزميلة المفترضة تقول إنها حضرت حسب الموعد، وإذا ما قبل صاحبنا بهذا الافتراض فلماذا لم يخبروها بأنه موجود في الفندق ؟.

حاصل الأمر..

فقد كان صاحبنا يفكك ويركب في افتراضاته، ثم يهدمها جميعاً.. يضحك مستتراً حقيقياً:

ترى هل يرى ذاته الراكضة خلف هواها المؤطر بـ «حتى».. ؟! هل يراها بعينيه هو.. بعين ذاته وكيانه وبيارق احتفالاته ومسراته الدقيقة والمعذبة الماضية إلى حيث لا يدري، أو لا يريد أن يدري ؟.

أم يراها بعين المحيط الذي يسيّره بإيقاع كل الذوات الخارجية، تلك الذوات التي تبدو منجرفة وراء الظواهر حيث لا تحتاج إلى فراسة في إدراك حقائق الأمور، بالتحديد.. تلك التي تحسب مثل فعلته، خبَل من خبَل، لأنها لا تحقق مصلحة، لا لها ولا له ؟ أو هكذا كان يفترض صاحبنا.

أمر يموّج دواخله بالضحك والقلق، وبأنواع من الضدية أحياناً، وأخرى من التوازن، ولحظات من الموضوعية.. لكنها أمور لا تراعي مناغمة النبض، ولا تساير عنفوانه.

فليكن..

لكنه، وخارج القياسات يجد أنه مسئول مسؤولية الإيمان، وأن كل منهوبي الناس ومعذبيهم ومستغليهم أمانة في عنقه، وهذه

الأمانة لم يبايع بأيديهم للدفاع عنها، ولم يساوم في اختيارها، أو يتلقَّ مكافأة أو تشجيعاً أو حتى سانداً نفسياً.

فكيف يخضع مثل هذا الاختيار للموازنة ؟، صحيح أن الأمر لا يخضع بكامله للتعاطف، بل ربما يخرج عنه، لكنه حقيقة الإنسانية الرافضة لأي شعار، أو وصاية، أو نعرات انفعالية موجزة.

لماذا يعذبه عذاب الناس، ويرفض حتّى العظم استغلالهم والتغرير بهم ؟.

لماذا يحسب كل حواسه وغابات مشاعره، واستراتيجيات مفاهيمه، بدافع تلقائي، نحو بذل ذاته بكاملها، وتوظيفها لهم ؟!

قال صاحبنا بقناعة الرياضي، الذي يرفض بعلميته أن يحيد عن قناعته، في أن العالم، لو اجتمع بلسان وعقل واحد على أن (٤x٤) تساوي ستة عشر، فسيكون مخطئاً ما لم يقدم برهانه العلمي.

(فماذا فعلت خرائط تغريبتك يا أبا زيد، سوى أن أمدّتك بزاد الأسفار ؟! بل لعلها لم تمدك «حتى»، بل استمددت الدوافع السرية منها، مقابل عذابها اللذيذ الحارق في شرايينك ليس إلا.

فهل جننت إلى حدود أنك تعرض مشاغلك المخبأة تحت أضلعك للمحاكمة، وتزنها بميزان اللاعدالة، وتحاسبها من فوق منابر الآخرين؟ هل تخضع المشاعر للاستشارة، تلك المشاعر التي يتحدث عنها الناس بإنصاف ولا يطبقون إنصافهم معها ؟!

لا..

إنها لا تتعارض مع سير أسفارك، بل لعلها تحفزك دون عناء منها ولا قصد.. «يوسف أعرض عن هذا») !!

مرت ساعات زادت عن الست.. هي دون تحديد، الفترة التي يحتاجها المرء لكي يتآلف مع الأشياء الغريبة، أو الجديدة، أو تلك التي تخرج من تآلفها عما كان قد ألفه في الوقت والمكان الذي سبقها.

فقد ألف صاحبنا في فترة الظهر وحتى ما بعد المغرب بقليل، كيف يتعرف على طريقة طلب الشاي مثلاً، ونوع الكوب والإبريق، وكيفية تناول وجبة الغداء، وكيف يجد السرير في الغرفة، على مسافة خطوتين أماميتين دون التواء، وموضع باب دورة المياه، ومكان مفتاح النور، ووجهة باب الشرفة ومكان المقعد.. أشياء من هذا القبيل ألفها بعد غياب طويل.

اقترب مرافقه من صندوق البلاستيك، الذي لم يجد له صاحبنا في الغالب ضرورة، فقد كان يؤثر سماع الراديو، أو بعض الأغاني المسجلة على عدد قليل من الأشرطة المصطحبة.

مد مرافقه يده إلى التلفاز، فصدح مطرب الأحزان، باللونين الأبيض والأسود: «والحب من غير أمل.. أسمى معاني الغرام.»

بعد أن حرك «فريد الأطرش» مواضع الاستفزاز في عصب صاحبنا، وبعد هذه الخدمة المجانية، التي يسبغها صوته الاييييه.. إيه يا عيني.. لم يكن لها أي ترحيب عنده، فكأنه ـــ غفر الله له – ببحّته المعروفة، يخاطب المدامع التي تبكي حزناً، لشيء أو للا شيء.

كان مرافقه يعلم المقدار الاستفزازي، الذي يولده العم «فريد» في شظايا صاحبنا، لكنه أبقاه يعوي.

تدارك الموقف. أدرك أن مرافقه يحتاج لأي شاغل. أشار إليه أن

ينطق حيث شاء، فما الذي يقيده ؟.

أجابه بأنه سوف يخرج بعد قليل.

جهاز الهاتف لا يلبث هنا، على يسار السرير، بل يقع بالضبط بين عيني الصاحب وقلبه، لكنه يريد أن يؤجل استعماله أكبر قدر ممكن.

استعد المرافق للخروج، وأشار، وهو يودع، إلى الهاتف قائلاً:

- ألا تتصل ؟! أراك معرضاً.

- سأتصل.

وطلب منه قبل صفعه الباب، أن يرحمه بإقفال التلفاز، ففعل وانصرف.

فكر، لو يمد يده إلى الهاتف، فخاف أن يكون في انتظاره ما لا يعجب. هو لم يبرر دائماً لماذا يتوقع أن يجد ما لا يرضيه وقتما يفتش عن «حتى»، ولا لماذا يكون هذا الغالب صحيحاً.

لم يجرب الاتصال. دخل دورة المياه، وكان يدندن بلحن أغنية اقتحمته فجأة.. «بين ريتا وعيوني بندقية». لم يكن بحاجة إلى دورة المياه، لكنه دخل وخرج، ثم قعد إلى السرير المرادف لسريره.

مد يده، وجذب الهاتف بجرأة غير محسوبة. أدار الرقم، وتحوّر في أُذنه الرنين، رنة.. رنتان.. ثلاثة:

- آلو..

كان صوت «حتى» نعم.. صوتها بشحمه ولحمه ومائيته الصافية

الوديعة. والله إنه صوتها. يا للصدفة، ويا لسواد وكآبة الليل الذي سيقف هناك، عند حدود شرفة الغرفة !

صوتها.. اختصر الستة عشر شهراً قمرياً كلّها.. كلها بجبالها ووديانها، وبطاحها وصحاريها، وأنهارها، وأزهارها ونجومها، ولذتها وحرقتها، وغيابها وحضورها، وغيرتها ولهفتها.. كلها نبتت في ومضة قصيرة على هيئة ثلاثة حروف، تتشكل على أولها حركة مدّ طويلة. لا يمكن لأحد في الدنيا أن يدرك مكوناته وطبقته ونفسيته، غير الصاحب ذاته.

رد برزانة وثقة مصطنعة:

- مساء الخير.

- مساء الخير.. مين ؟.

«مين» ؟ (بدوي ساقته الأشواق، جاء حاملاً تغريبته على وريده، ساق ناقته المعفرة بغبار الصحراء، وتزود بالمواويل والآمال، وأشياء أخرى سيبلغها الفم والعينان والوجد المعتق.)

«مين» ؟

لعل الدهشة المباغتة قد جعلت «حتى» تبحث عن يقين الصوت. الاستيقان مطلوب للتأكد، فليجب على «مين». نفث ضحكة خفيفة:

- أبو زيد يحدثك.. يا «حتى».

- هذا شيء لا يصدق ! من أين تتكلم ؟.

- أُحدثك من غرفتي، بالفندق.

قالها دون زيادة في التفصيل. الفندق معروف لديها، كذلك الغرفة ورقمها، والعم «علاّم» حارس البوابة المناوب، و«مصطفى» عامل المصعد، الذي يقدم ابتساماته قبل خدماته.

الفندق الذي تحفظ الأسماء والوجه لموظفي وموظفات الاستقبال فيه، ومحولي المكالمات الخارجية والداخلية.

هو ذاته لا يخطئه من قعد طويلاً على طاولته الركنية الصغيرة المطلة على الشارع التفريعي من خلف الزجاج المموج.

النادل الذي لم يتغير مع بعض زملائه، منذ ما يزيد عن ستٍ من السنين الماضية.

الغرفة المستطيلة ذاتها، الشرفة المحاذية لامتداد الأشجار الدائمة الخضرة ذاتها، الشاي القاني، وأشياء لا تنساها الحواس، ولا فتافيت الغرفة ومراتبها ومخداتها المعجونة، وأضواؤها المصفرة البخيلة. النافذة الجنوبية التي تحب أن تبقى مغلقة، لأنها تشعرها بالتنصت. بالطبع تعرف الفندق.

انتظر صاحبنا ردها.. علقت:

أيوه.. الفندق، الحمد لله على سلامتك.

دون إضافات في الحديث، اتفقا على لقاء قريب.. في الغد ظهراً.

موعد عائم. سألها عن الساعة. قالت إنها ستستأذن من عملها (بعد حساب عددت فيه استغراق الطريق والاحتياطات الأخرى):

- اسمعني.. الحادية عشرة والنصف.

أقفل صاحبنا الخط. رأى أنه لن يحتاج إليه بعد الآن. قام إلى الشرفة المظلمة، فبدد ظلامها حين ضغط على مفتاح النور، الذي هطل شحيحاً كأنما لوثه الغبار. وضع على الطاولة القصيرة علبة السجائر الجديدة، ونظارة القراءة، كعادته.. كان يرغب في فنجان شاي ساخن. كان الجو معتدلاً. الليل في أوله، وضجيج الشارع، بأبواقه واختلاط الذاهبين والآتين، يلقى حبوراً متراخياً في داخله.

لا يدري صاحبنا لماذا بدأت الأشياء تسترخي في خواطره.. لم تعد بتلك اللاذعة الهائمة.. تلك التي كانت تدفع به، دون تعقل، إلى القفز بكامل ثيابه في ماء النهر الساكن وسط المدينة. لقد وجد نفسه، ذات مرة، أنه مستعد للقفز من فوق أعلى شاهقة تطل على النهر، لو أن ذلك يرضي «حتى».

ألا يجد أحدنا، في أحايين غير مبررة، أنه قادر، دون أدنى تفاوض، على اقتراف اي حماقة ؟!

الحماقات لا تبدو لنا لحظتها أنها ضرب من النزق. نعم.. ربما تكمن لذة فاعليتها في كونها حماقة.. لكنها لذيذة.. صادقة.. حرة منطلقة.

(مابك يا صاحب.. هل هرمت عواطفك ؟ لا. العواطف لا تهرم ولا تشيخ، لكنها كالعواصف أحياناً، حين يسبقها الهدوء، أو يعقبها لتبدأ عنفوانها. ربما كانت الحالة نوعاً من التريث الطبيعي، لاستكمال البحث في جدوى الأشياء.)

قليلاً، وجاء عامل الخدمات بالشاي. شاب نشيط، بوجه مستطيل مبتسم ولحيته حليقة.. قميص أبيض وبنطال أسود نظيفين. وضع الشاي على صحن الطاولة دون ثرثرة.. وقف ينتظر التوقيع على

ورقة الطلب. سأله صاحبنا وهو يضع نظارة القراءة فوق أنفه ويخلع سابقتها:

- أهلا، يا..

- هاني.

- أهلاً، يا هاني. يبدو أنك تعمل في الفندق من قريب.

- صحيح. منذ يومين، والحمد لله.

- درست فندقة ؟

- لا.. أنا خريج كلية التجارة.. والحمد لله.

- ما شاء الله.. كم عمرك يا هاني ؟

- ست وعشرون سنة.. إن شاء الله. (قالها مبتسماً وعيناه منكستان).

- مرتاح في عملك ؟

- يعني.. الحمد لله.

لم يشأ صاحبنا أن يلج في التفاصيل. غالباً ما يجد الشاب، في مثل سنه، متخرجين من الكليات، ويعملون في مجالات لا تلائم دراساتهم، لكنهم يعملون ولا يفترون، (لا بأس، وهل ترك لكم الترس الطاحن أعمالاً تناسب دراساتكم ؟).

أمر طيب أن يعملوا. يقال إننا شعوب اتكالية لا تنتج لأنها لا تحب العمل ! يذهبون لتبرير دوافع العاملين، فيقولون: الحاجة، أكل العيش، متطلبات الحياة. يصيغونها ثم يهيئونها لتصبح:

الكفاح من أجل خلاص الفرد. أنا أدرس.. أنا أعمل.. أنا أتعب، أنا أحصل.. أنا.. أنا حر! حر أشتري.. حر أطرق كل أبواب الشركات والمؤسسات، أبحث عن عمل.. حر أجلب المال بأي مسلك.. أو حر أنام وأعد النجوم.. أنا.. أنا.

مضى «هاني» تحفظه رعاية الله، إلى غرفة الخدمات لتلبية طلبات الفندق، إلى أن يكتب الله له عملاً يتناسب مع شهادته الجامعية، وليكن في إحدى البنوك الاستثمارية، أو شركات الإعلان.

(آه.. شركات الإعلان والدعاية، بص.. شوف، بسبس بتعمل إيه، بتعملي إيه يا بسبس؟ بأكل البازيلا بالشوكة.

شاطرة.. وإيه كمان؟.. أدعك سناني بمعجون كريست.. ده ضد التسوس.

تساءل صاحبنا بمرارة عن «حتى»، ماذا فعلت في عملها منذ سنوات، وماذا عمل بها العمل في شركة الإعلان؟

لعله قد نظف دماغها بكل منظفات الغسيل الدعائية.)

سكب فنجان الشاي الساخن.. كان قانياً كالدم، في الكوب الأبيض، وكانت منفضة السجائر شبه مترعة بالأعقاب. حملها إلى السلة بدورة المياه. أعادها.. ستبدأ عملها الوظيفي من جديد.. كوب شاي وسجائر في علبة أنيقة يستخسر مدخنها أن يُلقى بها عندما تفرغ.. لا بأس.. لا بأس.

فكر، لو يتصل عن طريق ذلك الجهاز المقرب المبعد بـ «حتى». يريد أن يقول لها كلاماً كثيراً، لكن، هل يجد قابلية كسابقات الأيام، كما كان يسألها عن عينيها الآسرتين حقاً.. ألا تزالان عميقتين

وساحرتين وسوداوين ؟.

هل يسألها عن يديها الحبيبتين الأليفتين، اللتين قبلهما حتى ثمل؟

هل يسألها عن وزنها، وقامتها المتوسطة اللذيذة وعنقها الرخامي؟

لا.. لم يجد دافعاً مشجعاً للاتصال من أجل أوصاف المحاسن المتكررة. يريد أن يسألها عن عملها.. حياتها.. نفسيتها.. أفكارها. لكنه أعرض، فليس الآن، ولا يليق في اللقاءات الأولية، التي تدفعها الأشواق، أن تفسدها الأسئلة الجادة. إنه يحدس أن أجوبة ستصفعه، ستجيب عنها «حتى» بتلقائية المنتصر.. آه لو تدرك جواهر الأشياء ! لو تعلم كيف تحضر سلطات الفواكه المثلجة، قبل أن تصل إلى أفواه الجنود، أولئك الذين لرائحة عرقهم نفاذ كنفاذ – بول القرود في الأنوف – كما قرأ عنها.

لو، ولو.. فليولول لسان صاحبنا في داخل شدقه، وليلملم خواطره الطافرة من أعماقها فوق أشواقه الحميمة إلى رؤية «حتى»، ولتمطر السماء بما اختزنت.

رن جرس الهاتف، فقام إليه صاحبنا على مهل:

– آلو.. نعم.

– الله ينعم عليك.. ألن تغير صيغة الترحيب الهاتفية هذه ؟.

– بودي، لو أغير كثيراً من الصيغ، حتى في سلوكي.

– يا أبا زيد.. الناس تسافر لتخرج، لا لتبقى رهائن وساوسها في

الغرف المقفلة.

- لم أشتكِ إلى أحد.. إنها اختياري.

- قلبي عليك.. أخاف أن تتعقد من العزلة.

- شكراً على مشاعرك.. لا تخافي.

(لم يكن صاحبنا يشك منذ البداية أنه صوت غريب، لكنه تردد بعد أن وجده ملماً بفتافيت مدهشة، مما جعله يتجاوب رغبة في معرفته). واصلت:

- طبعاً.. لم تعرف من يكلمك.

- ليس مهماً أن تعرف.

- طيب.. باي. باي.

- مدتها قيلاً وأقفلت الخط.

بقي صاحبنا داخل دائرة صغيرة من القلق. لم تلبث أن اتسعت، وكثرت الدوائر:

ترى من تكون هذه التي تعرف عنه هذه التفاصيل ؟ لا بد أنها من جهة محددة، أرسلت لتؤدي واجبها المرسلة من أجله، وبالطبع فإن تلك الجهة لا تخفي عليها البيانات وخطوط أسفاره. فليكن، فصاحبنا لا يجرؤ على إيذاء عصفور، ولا يؤمن بالمهاترات أو الشعارات، أو العنف والضرر، ولا الاجتماعات السرية، ولا يحمل على أحد في غير وعي.. ما لهم وله ؟ إنه يحب الخير والجمال، ويحب العدل والإنصاف.. فوق هذا.. يحب كل الناس.

أخذ ينفض عن خاطره الوهم. تعززت الثقة في جوانحه. تناول علبة سجائره. فكر لو يطلب عشاءً خفيفاً، لكنه أرجأ الطلب لحين مجيء مرافقه.

كان جو الغرفة هادئاً مستطيلاً كهندسيتها، ومحدداً رخواً كأنما جلد بالسياط، وكان داخل صاحبنا رخواً مهملاً كحبل ثقيل، ومنوراً بشمعة يتمايل ضوءها لحظة تنبت في ذاكرته صورة «حتى» وموعدها الصباحي.. الحادية عشرة والنصف. قام إلى دورة المياه، فغسل وجهه بالماء والصابون الناعم، ومشط شعره.

خرج.. مد ذراعه نحو الراديو، ودون أي ضبط للمحطات.. جاء صوت «فيروز» واضحاً: «لا تسألوني ما اسمه حبيبي» انتهت. قال صوت المذيعة الأخنف: «صوت إسرائيل من أورشليم، القدس» عقبها إعلان: «ولادك عميكبروا، ومن اليوم.. علمهم يوفروا» .

أدار موزع المحطات قليلاً، فداهمه «اللهن المجروه.. فريد»، لا يدري بماذا كان «يبوه» من معاناة الحزن والعويل. أقفل الراديو، وخرج إلى الشرفة. كان الطقس معتدلاً ويبعثر نسايم باردة متباطئة.

رد صاحبنا لو يأتي مرافقه في اللحظة، فهو بحاجة إلى أن يتحدث معه.

نعم..

أحتاج إليه بود شديد.

المرء يحتاج، في أحايين معلومة، إلى أشخاص محددين، لا يمكن لأحد غير مفردهم، أن يلبوا هذا الاحتياج.

تساءل دون مبالغة، إن كانت «حتى» ستسد احتياجه في هذا الحين. رأى أن ذلك غير ممكن، فهو يحتاج إلى شخص بعينه، يسرد عليه ما جرى له بعد مغادرته، ويسمع منه أي تعليق، ثم يحكي له الآخر ما صادفه في خروجه.

مرت ثلاث ساعات ونصف. مرافقة لم يعد. لم يطل. دقائق وطرق الباب. لم يكن مقفلاً.. دخل مرافقه مبتهجاً منتشياً. وقف صاحبنا فاحتضنه فكاد المرافق يغمره بطوله، و غنيا بصوت واحد مطلع أُغنية من بلدهما «يا سارية.. خبريني، عما جرى خبريني» .

الورقـة الثالثة

الليلة ليست يتيمة دهرها، فالقمر يخسف في فضاء السماء، أو يبقى معلقاً كقنديل كروي، خلف الغمامات حين تكون معفّرة بما يشبه رذاذ الفحم.

وصاحبنا يجلس على مقعد خيزراني عتيق، بمحاذاة هذا النهر القديم، والنهر لا يعبأ بالعمارات المزروعة على ضفتيه ولو أنه يماوج في تريث. يصورها على مرآته المتحركة و.. يمضي متراخياً.

صاحبنا.. لا يدري أين شمال النهر من جنوبه، أو لعله لم يفكر يوماً في اتجاه المدينة التي يفصلها النهر إلى جزئين غير متساويين. يقعد مانحاً وجهه نحو المدى، والمدى تردعه جسور من فوق عرض النهر، محتشدة بأضواء السيارات المتداخلة، ذات اليمين وذات الشمال، ومن الأمام والخلف، وحيث يلقي السمع بحاسته.. أبواق.. أنوار.. روائح كربونية ورصاصية وغبارية. أغانٍ رخيصة مدججة بالتصفيق واستفزازات آلة الأورج.. تأتي، مع هباهب الرياح، من المراكب السياحية في النهر. خيوط نباتية تندلق بخضرتها من الجوانب في الماء. أذان العشاء يعلن الشطر الأكيد في أول الليل. سمع أن القمر لم يظهر الليلة.

فليخسف إلى أن يشبع.. من سيتأثر بغيابه ؟! وليعلن بحداده المحتجب عن احتجابه على قوم لا يلقون له بالاً. لقد عرفوا أنه لا يصلح لأن يشبّه به العاشق وجه معشوقته. لم يعد يلهم إلا بلهاء الرومانس الخياليين، حيث يتناسون وجهه المفلّج بالأخاديد

والصخور والوديان.. لا حس.. لا طعم.. لا رائحة. دائرة ضوئية يمكن الاستعاضة عنها بمئات المعوضات الضوئية المخترعة.

«مارلين مونرو» أرهقتها الإعجابات، فقيل: انتحرت بالحبوب المنومة، فزمّت سينما هوليود شفتيها، ثم فكت أزمتها تجارة الأبدان القياسية، في الطول والعرض، والوزن والطعم والرائحة !

«كليوباترا» عبس وجهها قليلاً لأن وصيفتها دلقت خطأً الطيب على شعرها الممشط.. أهتز رأس الحية على جبهتها، ولم يتغير وجه التاريخ !.

حبيبة «بونابارت» باتت مغضبة الخاطر، لأنـه، عقب عودته منتصراً، انشغل بغسل سيفه من الدماء، ونسي أن يدلك شفتيه في قدميها الحماميتين!

«صالحة بنت أحمد» القروية في الجنوب، خبزت عجين الحنطة، ومسحت ذوب عينيها، ثم قطعت لبنتها وعداً بأنها ستشتري دهاناً لماعاً لشعرها، مثل البنات، ولو اضطرت لبيع لازمها الفضي !.

«جليلة» القاضية بوعدها، إذ سرّحت جدائلها وارتدت كامل زينتها انتظاراً «لكليب» ولم يعد، يبس القسم في لسانها حتى تأخذ بالثأر !.

حتى.. حتى، و «حتى» يا صاحبنا الهارب بتأملك في مدى النهر المحاصر، نكّست برأسها حين حدثتها بالحب. منحت صمتها المعتاد لرهافة أُذنيك، وأمطرت دواخلك بالأسئلة. يا لها من امرأة يحكمها الغموض والمزاج. كلاهما حاكمان يبعثان على الأسئلة والشك.. ما أصعب أن يبقى الصاحب رهنَ مسيطرٍ من نار وقلق:

- ما بك ؟.

- .....

- «حتى» يا زهرتي الندية، ماذا يقلقك ؟.

- .....

- هل يؤلمك رأسك، كما تشتكين منه دائماً ؟.

(كانت تشتكي من رأسها عندما تحاينها عادات النساء).

- .....

- لا بد أن أمراً حدث.. فغير خاطرك الطيب.

- .....

أهملت يديها الشمعيتين على بساط الطاولة. سمّرت وجهها الصامت في نظارتيه طويلاً، وراحت عيناها المغمضين تسقطان ذوبهما دون صوت. لعل نشيجاً خفيفاً ومتقطعاً، لم يبلغ مسامع صاحبنا، قد ضاع بين الأبواق والضجيج وحركة الناس..لا يدري. وجهها قد تغيرت قسماته الحبيبة. شفتاها ارتجفتا وأخذتا هيئة ملمومة إلى الداخل.

قال، فليدعها قليلاً حتى تمطر غيوم صدرها.. سوف تهدأ، تصمت برهة، تنتظر منه أي كلام يقوله، ثم تتحدث.

ألا يحتاج أحدنا، في أحوال مشابهة، إلى مساحة تهطل فيها غيوم أضلعه ؟ ألا يحتاج إلى صدر رحب، وقلب مستوعب، ويدين مفتوحتين.. يحتاج إلى ملجأ، أو نفَس دافئ، أو حضن يخبئ في

حنوّه رأسه بكامل حواسه الخمس ؟! لماذا إذن لا يزيح صاحبنا، الآن، شكوكه النابتة من غيرته وحرصه وخوفه ؟ لماذا لا يزيح ذاتيته الامتلاكية، وينزع عنها عباءتها الصحراوية الرجولية ؟!

إن «حتى» تحتاج الآن إلى هذه الأشياء التي افترضها كما لو أنه رآها في نفسه: الغرق. لو أن الحالة، مهما كان مبعثها، استبدت به، فسوف يقوم يغلق على حاله، ليستفرغ غيومه بين أربعة جدران، وسوف يقوم خجلاً من هيئته، إلى صنبور الماء ليغسل وجهه، ويعتصر أنفه و.. سمع الله لمن حمِدَه، فـ «البكاء لا يليق بالرجال»!.

أما هي، فلم تجد كفاً تحتضن جوانح همومها إلا عنده، فاحتملت طويلاً، ثم هطلت. لا يجوز لنا أن نقطف حسرتنا من أحبائنا، دون أن ندرك جيداً أنهم بحاجة إلى مشاركة في أتعس حالاتهم. قطع صاحبنا حديث الخاطر، وقت أن التفت ليطلب كأساً من عصير الليمون المحلي، وفنجانين من القهوة المتوسطة. لعلها، إن لم تشرب الليمون، تقاسمه القهوة التي تحب سكّرها كما يحب.

لم يشأ أن يقطع حالتها.. حدث مثلما توقع: انفعاله ثم صمت، ثم انتظار لأي كلمة من الشخص الموازي. كان دور الصاحب مؤقتاً. تطلع في وجهها الذي ظهر كبرتقالة مسلوخة.. قال، وهو يبتسم قليلاً، إن وجهها جميل، ويبدو كقمر مغسول. قرب إليها كأس الليمون، فقالت على مهل: شكراً. استعادت شفتاها هيئتهما، فكانتا حيتين ومرسومتين، واستعاد وجهها نشاطه. كان مربعاً يستدير قليلاً.. ناضجاً كثمرة يانعة، لا يستتر خلف المساحيق، ولا يراوغ مع عمر حامله الذي يضع أيامه في أول درجات الثلاثين.

لعلنا، وقد اختزنت ترسباتنا في الوصف، نسأل دواخلنا فوراً:

وماذا عن عينيها وخيمة شعرها، بعد البكاء ؟.

لم يجب صاحبنا !.

ليس لأن به نزعة الديك الغيور إلى هذا الحد، ولا لأنه مثل نادر في الخروج عن الإيقاع..

لكنه، «لكنه ماذا؟، نريد حقائق.. أرقام، مو. تقول لي موضوع إنشائي» يا سيدي «لا سيدي ولا بطيخ» .. يا سيدي ليس ما أقول إلا الحقيقة. «أنتم المثقفون تلفون، وتدورون بمائة طريقة.. ما هي الحقيقة ؟»

الحقيقة.. أنني كنت أتحدث مع حبيبتي، التي يشبه وجهها قمراً مغسولاً. «قمراً مغسولاً! هوه فيه في الدنيا يا جاهل، قمراً مغسولاً، وإلا حتى كان فيه قمر، في تلك الليلة !، نسيت يا أبو زيد المتيم.. أنه كان خاسفاً ؟»

(سبحان الذي جعل العالمين، جهالاً !)

«قلت لك تكلم، في أيش كنتم تتكلمون» ؟ يمكنني أن أكذب، فأعترف بأشياء مختلفة، وأقول غير الحقيقة.

«هاه.. شايف اللي في إيدي.. طبعاً شايف، والله..» (والله، إنك أحمق، تنزع نظارتي، ثم تقول «شايف») ؟!.

كيف يمكن أن يكون: محققاً.. متهماً، ثم لأمرٍ ما.. يصبح مداناً؟!.

هكذا كان صاحبنا يحاكم ذاته، فيدينها ويبرؤها ،وهو ليس مداناً، ولا حر الاختيار. قلبه مع «حتى» بغرفه الأربع وما تحويه

من كهرودموية، وطاقات أخرى غير متجددة، تتلف بمجرد استنفاد طاقاتها، وعوامل تقطن كل الخزانات والأدراج والمراتب والمخدات والأغطية، والمناديل الورقية، وفرش الشعر والأسنان، وزجاجات العطر الصارخة والهادئة، وأدوات الزينة البدنية القليلة، ورحيق دم الأيل في قنانيه وعلى الأظافر الناطقة دون لغة، و «اسبريه» العرق، وحواف الكومودينات التي تتثاءب عليها الملابس الداخلية الناعمة، وسلك الهاتف المنزوع.

الكتب المستندة بميلان دون ترتيب، الأوراق المبعثرة، الأقلام، النظارات، ربطات العنق المهملة، قمصان فترت بنوعيتها، جهاز التسجيل الذي أدمن «فيروز» و «موزارت» حتى تثلّمت عجلات السحب بداخله، منافض السجائر والعلب الفارغة ونصف المستهلكة.

قلبه ذو الغرف الأربع، يحيطها حزام عريض ومنبسط من الحدائق والمروج والربوات المنخفضة. هناك فوق أبعد ربوة تجذب النظر الضعيف. ينتصب برج يرقب حتى دبيب النمل، ويعد نبضات المسكن الأليف، الذي لا يزيد عما تحويه القبضة. حفنة تحيطها الأصابع الخمس؛ تدق.. تدق.. تدق مرة بعنف، ومرة بانتظام رتيب.

يعرف صاحبنا متى يصهل الميكانيزم في عضلاته، وكيف يهمز الفوارس على سروج خيولهم، وكيف يهطعون أربطة لجاماتها.

الآن.. على هذه الطاولة بمفرشها الأبيض، وهو يمنح نقاءه وفسحة امتداده المتهدل نحو الأطراف الأربعة.. يمنحها للقاء لم يعد يسيراً كما مضى، لقاءٍ ممدّدٍ في الوقت والنفس وصوت اللسان واختصار

قول المشاعر، وسيطرة الحساب والانضباط، وعجرفة الأمور التي لا تراعي معارضيها.. آه يا «حتى».

قال صاحبنا وقلبه كسمكة عضها خطاف:

- ما الذي.. كان يضايقك ؟.

- لا ؛ لا شيء..

- أنا أعرفك. أنت لا تبكين إلا لأمر يستحق.

- لا..لا.. لا شيء.

صاحبنا لم يتعود الإلحاح في شأن كشف الخفايا الخاصة، و«حتى» لا تنضح بدواخلها ولو في أيسر لحظات الانفراج. لا تقول عما يطوف في قلبها. صعبة، مغلقة إلى حدود الإبهام، حين تمسح لسانها الفرجة للحديث.. تحذره عشرين مرة ألا ينصبّ في حلاوة اللحظة مفتاحاً لقلبها. لا يذكر صاحبنا أنها تحدثت عن عواطفها، تفعل ما يمكن القول إنه صميم الحب، لكنها لا تقول، حين يحدثها، عن بعد، بشوقه.. لا تسايره الحديث. تفعل أي فعل يُصنف بالحركة. تنظر إلى شاربيه. تلمس ظاهر كفه. تعيد شعرها إلى الخلف. تتأمل أظافر يدها. تسند ذقنها على راحتها، تهز سلسلة رقبتها.. وعلى هذا القبيل.

أليس من الحمق على صاحبنا أن يسأل كعادته أحياناً: لماذا لا تبوح «حتى» بوحاً صارخاً واضحاً، يطمئنه ويرضي ويريح قوافله الضاربة في تخوم الصحراء ؟!

ربما، لكن قد يكون في هذا صنف من الإجحاف، ذلك أن التسليم الصرف. بأن الوعي يلغي الترسب، أمر لا يراعي المخزون، المخزون التراكمي البعيد، فهو ليس مجرداً من مؤثرات الزمان

والمكان. هذان العملان يؤكدان، في شأنه التعاملي مع «حتى»، أنه يتوق إلى معرفة كوامنها تجاهه، بصورة نقية واضحة.

من أي عرب أنت ؟

أي قبيلة تضمك تحت فخدها ؟

بأي نجم في أسفار البطاح تهتدي ؟

أفي أنف الناقة عزتك، أم في ذنبها من حُمر النعم ؟

نعم..

كل هذه التساؤلات، تحوم في ذاكرته، حتى وإن كان ينفض غباراتها التخلفية مجهداً، ضمناً.. تترسب في العمق. يصارع سياطها، كما تصارع الأنثى المرغمة سكين ذابحها.

«أن أراك وأن أراك وأن أرى»

لكن المثل العربي بأنفهِ المثالي يؤكد في المجالس أن: «اللبيب بالإشارة يفهم». طيب، وإن كان صاحبنا ممن لا يدركون محاسن الأشياء، إلا بالغوص في قعورها !.

لا خلاف..

ذهب يومئ لخاطره، وهو يتحدث إلى «حتى»، أنه فعلاً، بكامل كيانه.. جملة وتفصيلاً، يحافظ على التمسك بلب الأشياء.. عليه الآن أن ...

وسألها:

- ما هي أخبارك في العمل ؟.

- تقصد.. الشركة ؟.

- بالضبط.

- أبداً يا سيدي.. ماشية !.

(آه، زمت شفتيها)

هل يسألها عن التفاصيل ؟ ربما لا يجرؤ على سماع ما لا يرضيه، يخاف لو ينكأ الجرح، فيندم على أشياء، إن تبد له تسوؤه. ألم يتحاشى عشرات المرات، أن يسألها، أو يقص عليها كيف عاد مكسوراً يجر نزيف عذاباته، وقت أن لم يجب أحد على هاتفه وحضوره المتكرر، ولم يجدها أو يجب عليه صوت قريبتها في سفرته السالفة ؟ !

ابتلع هذا السؤال الضخم القاسي كحجر وصمت.

كان صاحبنا قد اخترع له مائة احتمال، وافترض أن يصيب بعضها، أو أحدها لكثرتها، حالة اختفائها مع قريبتها.. ليدع ما مضى، وليخلق أو يتصنع أي حديث، فالأمور تجرجر بعضها. لا ريب أبداً في أن «حتى»تقيم للود والمحبة في دواخلها شأناً، وإلا ما الذي يجمع بينهما، وما الذي جاء بها ؟

علم، وهو ينبش في ذاكرته مراراً، أن الحب متى كان خالياً من القلق، والمشاكسة والاختلاف أحياناً والعذاب الضمني، الذي يزود مسيرته بلحظات المسرة، ربما لا يستحق أن يكون حباً، فأبهج خاطره. نظر في عينيها فابتسمت، ثم لثم يدها على حين غرة، وانغمرا في سكوت طويل إلى أن قاما.

** ** **

«حتى»امرأة تحمل في رأسها أثقالاً، وفي قلبها أثقالاً وأحلاماً وأزهاراً، لكنها لا تقول.. تتجرع أثقالها. إذا نضجت دواخلها المكتومة بكت، وإذا بكت، بكت بصمت !.

كم من مرة بكت بكاءها الصامت ؟ يعلم صاحبنا أنها مرات قليلة لا تزيد عن الثلاث في تاريخهما السري العميق. يذكرها كما يذكر تاريخ ميلاده. يذكر المناسبات والمواقع والاحتمالات والافتراضات، التي يتلمسها.. أنّى لك يا صاحب أن تصل إلى الأسباب مع «حتى» الصابرة الصامتة المحملة بالأثقال ؟!

كم يقلقك هذا التصرف.. تود لو تصل إلى معرفة الغموض.تودُ لو تتمكن من أن تساعد في السيطرة على بعض همومها، أو تزيلها بأكملها، أليس يسعدك أن تراها سعيدة.. لكنها.. لكنها.. لكنها لا تقول !.

إنك تعلم أنها لو بقيت أياماً دون طعام أو شراب، فلن تشتكي.. حديثها على الغالب قليل كأيام السعادة في العمر. لا تطلب شيئاً، ولا تبدي أنها تحتاج لأي شيء.. عزيزة النفس إلى حدود إلغاء الذات، وشامخة كالشجرة الخضراء فوق الأفق. رحبة.. عميقة، تبتسم كأجمل ياسمينة.. كل شيء فيها ينطق بلا لسان، كلسانها حين يجمد وقت إذ تتحدث عن هموم ذاتها.

يا رب.. كم يقلقك يا أبا زيد، أن تسبح قصائدك كماء السماء حين يدق بقطره الوفير على الرمل !.

** ** **

الليلة الثالثة.. لم يتقابل صاحبنا مع نصف قلبه المنفصل. لم

يهاتفها ولا هي فعلت. ثمة رقيب يعملٍ كالعداد، يسحب من رصيد الوقت، فيتناقص ساعة فساعة.. فيوماً. عندما يحل الليل، يقرع في ذاكرة الصاحب: بقي من الليل.. بقي من الأيام.. من الوقت، إلى أن تدق لحظة السفر، ولحظة السفر عند صاحبنا مدتها طويلة في نفسه، فهو يستعد لها منذ أن يغطّس تأمله المتحفز في الأثنتي عشرة ساعة السابقة. ليس غريباً في عاداته، فهو امرؤ مسكون بالقلق، بالإخلاص لأصغر ارتباط أو التزام. أيام معدودات سيجرين جري السحاب، بكامل فتافيت ثوانيهن ودقائقهن.

«حتى» قد تحترق شوقاً، لكنها (وما أكثر لكن في أمرها).. لا تملك الشجاعة على الغالب في الاتصال أو المجيء. ليس عجيباً فهي، في حالات تحضرها وتغيب عنها، تفتقد الإرادة، ويحتلها التردد والشكوك فيختلط عليها أبيض الأمور بأحمرها. تعيش وقتاً قد يطول. لا تجد مقدرة في فرز غث اللون عن سمينه. ذكية ولماحة وعالية الحساسية، لكنها تضيع أحياناً في ضياع التردد، ثم عدم المعايير، ثم تيهان الموازين، فاللا إرادة.

لقد أخفى صاحبنا في رسالة كتبها إليها كلمة «جبانة» ، وكان يعني بالتمام كلمته، فاستخدم المزيل المبيض. قالت له في لقاء بعدها:- ما هي الكلمة التي كتبتها، ثم أزلتها ؟

- أية كلمة ؟

- كلمة.. جبانة

- جبانة !!

- لا عليك، قرأتها أمام الضوء.

كان يتذكرها، ويتذكر موقعها على رسالته في آخر السطر الأول من الصفحة الثانية.

كان يحاذر أن يجرحها. كتبها، وكتب كلاماً قليلاً قريباً منها، وآخر مشبعاً بالرحيق. فرح وقتها، عندما أعلمته بقراءتها. لم يكتبها مع كثير من التحفظ، إلا من معرفته وتحليله لها.

ألا يجد أحدنا مقدرة جريئة وجامحة، في كتابة الرسالة، أكبر وأبلغ مما لو يقوله هاتفياً أو مقابلة ؟.

نعم..

هذا يحدث، ويحدث بأبلغ صوره عند صاحبنا. إنه لا يشغل فكره بهذا، بل يزاوله على الدوام، ويجد فيه مقدرة عجيبة على التعبير والإفاضة.

كان يجلس مع مرافقه الحميم طويلاً، ويتحادثان في أمور شتى. كثيراً ما كانا يستعرضان أخبار العالم الهامة وغير الهامة، حوادث القرية وشخوصها. أمور صغيرة تقابلهما في الشارع.. المقهى، الكافتيريا الفندقية.. المطعم.. شؤون القلب ومشاغله، وأشياء تقودها أشياء. لا يكادان يفترقان.

في وقت غدائهما بمطعم الفندق، استأذنهما رجل في الجلوس حذاءهما على الطاولة، فأذنا له. وضع قامته الطويلة الصفراء. سفح ابتسامة عريضة، فأبانت امتداد شاربيه الأصفرين.. كل شيء من بدنه الظاهر كقشر الرمان، حتى إن الضوء ليسطع في زغب ذراعيه وحاجبيه المنفرجين.

ويبدو أنه لم يخطئ في قراءته للوجوه الصحراوية، وأنه يرغب

في فتح نافذة للحديث عن شأن كان. سألهما بإنجليزية متحررة إن كانا عرباً، فأجاباه..

- نعم.

- كيف توقعت ؟

- ملامحكما، مشوية بالشمس.

- يمكن.. لكثير من الملامح، في أماكن كثيرة.. أن تبدو كذلك.

- لا.. لا، الملامح عربية، صحراوية، و..

- و.. ماذا، مغسولة بالغبار مثلاً ؟ (كان صاحبنا يبتسم)

- مغسولة بـ «الأويل.. الأويل» .. (قالها مرتين).

لا بأس.هذا ما تمليه عليه معارفه. ليقرأ السحنات والملامح كما يطيب له، لكن.. ماذا يريد أن يقول ؟.

لم يعرّف باسمه، ولم يسألهما عن اسميهما. سأله الصاحب:

- نحن يا سيد..

- اسمي وليم.. وليم ويلسون. (لم يحرك رأسه ولا يديه).

- نحن، يا سيد وليم.. (قاطع معتذراً):

- لو سمحتما.. أسماءكما. (ابتسم قليلاً)

أشار صاحبنا بيده نحو صدره، ثم نحو مرافقه:

- أنا أبو زيد، صديقي أحمد.

خفض السيد ويلسون رأسه قليلاً إلى يديه الرابضتين على

مستوى الطاولة. قال بالعربية:

- مرحباً. (نطقها بالهاء).

- من أي بلد، يا مستر ويلسون ؟.

- أنا ألماني، أحمل جنسية أمريكية.. زوجتي من هنا.

كان الحديث متقطعاً. سألهما إن كانا سافرا إلى أمريكا. أجابه صاحبنا بأنه يشاهد المصارعة الأمريكية في التلفاز، ولا يفكر في السفر إليها.

كان مرافقه يبتسم، ويعلق أحياناً بكلمة أو اثنين، وينقل بصره بين قميص «وليم» المفتوح، وبين طبق السلطة نصف الفارغ، الذي كان يجاور أطباق الغداء.. سأل نفسه عما جعل المستر الذي يقتعد كرسياً قربهما على الغداء، بينما اعتبره صاحبنا سائحاً قناصاً للجيوب والعزائم والمواعيد، أو مفلساً. حينما عرض عليه تقديم غداء حسبما يريد، اعتذر. عندما رآهما يتوقفان تماماً عن الأكل، سألهما إن كان للتجارة شأن في حياتهما العملية. أجاباه بالنفي القاطع، سكت الجميع برهة، ثم أخرج «وليم «ورقة صغيرة كلسان القطة، وضعها أمامها قائلاً:

- هذا عنواني.

ودعهما بتحية مقتضبة ومضى.

سأل المرافق صاحبنا إن كان المستر من أولئك الذين قرأ عنهم، ويحدثه أن لعرقهم رائحة تشبه بول القرود.

أجابه الصاحب، بأن التعميم غير موضوعي في تصنيف البشر،

وأن في الأجناس والطوائف أيضاً أُناساً ليس لهم، فيما يقترفه صناع القرار والمتشوفون، ناقة ولا بعير. أضاف ضاحكاً، أنه كان يشم رائحة الاسبريه حول جسده مختلطاً برائحة التفاح والتمباك.

لم يكن خاطر صاحبنا ليغيب عن وجه «حتى». ألم تكن أذنا المستر تشبهان، إلى حد قريب أذنيها ؟ ما وجه الشبه ؟! لا يدري! كانتا تتشابهان. لقد لا حظ ذلك الرجل الغريب، أن صاحبنا لا ينظر إلى وجهه أو عينيه أو فمه، كعادة الناظر إلى المتحدث، مما جعله يتلفت نحوه بكامل وجهه.

قام الصاحب ومرافقه ليصعدا إلى شرفة الغرفة، فطقسها طيب ويهيئ لشرب الشاي والتدخين.

سأل المرافق صاحبنا إن كان سيستقبل ضيوفاً اليوم.. يرغب في الراحة إلى أول الليل ثم يفسّح قدميه وعينيه إلى أي موقع قريب، يدفن فيه السائح هروبه، بعد شرود قصير يتلاءم مع ارتخاء آخر الظهيرة.. قال صاحبنا إنه لا يدري، فلا ميعاد سابق ولا لاحق.

أثار سؤال المرافق في قلبه، نغزة يقظة غير مداهمة، كمن يقول دون عنوة: إن الوقت يقطعنا لحظة لحظة.

قام إلى الداخل، دون تخطيط، ووثَبَتْ يده وثوب الجرأة إلى الهاتف. أدار الرقم، وكان يحفظه كله إلا آخره، فمرة تصيب وأخرى.. ردت قريبتها:

- مساء الخير، يا ابني.

- ممكن.. أكلم «حتى».

- دقيقة.

وقت ما بعد العمل والغداء يحتاج فيه البدن للاسترخاء، لا ريب. يا لك من مهاتف غير لائق !.

غير لائق.. غير مناسب.. وقت غير ملائم. صاحبنا عذبته الحساسيات في كل أمر مع الآخرين، فيما يختصّ الهواتف بالتحديد، يحاسب أصابعه مرات، إلى حد أنه يبدل في الأرقام.. ينسى أولها، أو آخرها. لا يدفع بذاته على سماعات المستقبلين دون موعد، أو توقع بأنهم لن يتقبلوا هاتفه.

الآن.. لم تطرأ على باله إلا بعد أن اتصل.

ألسنا، بدوافع تشبثية مبررة، نسعى تلقائيا نحو تسيير الأمور لتصب في نهر رضانا ؟! نعم، هنا يقول:

لعل ولعل و.. لعلها بأي حال، ونظراً لضعف إقدامها على فعل أي تصرف بشأن القلب وحواريه، لم تتجرأ لتبدأ، كعادتها. عليه هو أن يُقْدِم، وليوزع حساسيته المفرطة. إنها تقوده بسلبيتها غير الملائمة كثيراً نحو العند.

على أي كان المنقلب..

جاء صوتها الذي تشكل ببحته الخفيفة ووضوح رنته:

- أيوه.. ما هي أخبارك ؟.

- بخير.. وأنتِ ؟.

- بخير.. وأنت ؟.

مهلاً، طالما أن كُرَةْ الكلام، تقذف وترد بتكرار السؤال على السؤال، فالاشتياق مؤكد (كما يعرف عنها، تحتاج إلى من يدير

حوافز مشاعرها الصامتة كالعادة):

- اسمعي . .

- أعرف . . الوقت يسعى . نتقابل على طاولة الركن ، في الفندق .
أضافت بعد غمضة طرف:

- . . مسافة الطريق .

- أنتظرك، مع السلامة (للأمانة، كانا يوقعان خاتمة كلامهما الهاتفي بكلمة «باي»).

يعني أن «حتى» ستكون بالضبط هنا، في مدة معلومة، قبل أن يرتد إلى صاحبنا نثار انكسارا ته، وبيد نوقه المترامية في الصحراء، يريد أن يوردها جميعاً نحو الماء، فأمامها سفر طويل جاف، لوقع خطاه على بثور الرمل ؛ حرشفة كحرشفة الليالي الجافة داخل قلب الوحيد.

ألم تعلّمه الأيام، أن الأشواق المكتنزة تذوب رويداً إلى أن تصبح راغبة في البعد ؟ العودة إلى حيث تكونت وتجمّر حطبها . . هناك في البعد، من حيث أتت، فهي لا تقبل أن تنحدر في لوعتها إلى موقع الاعتيادية، النقطة التي يرى منها أن مزاولة الاشياء تهون فتطفئ اللظى، فالحب مهما كانت استراتيجياته الإنسانية، لابد أن يكون مدفوعاً بالاشتياق. الوفرة الحضورية، تتحول إلى إمكانية لا يصعب عليه تناولها.

لا . .

ليس بهذا التناقض التنازلي . . ما هكذا تورد الإبل يا أبا زيد، بل على تجنب كيل الزيادة تربى في حبه مع «حتى» أو هكذا ربته

خاليات الليالي.

كم مرة تعلم الإنسان، وكم مرة نسي كل ما حصّله في يوم أو بعض لقاء !. لا تمتص رحيق الزهرة التي سقيتها بماء روحك في وقت غائب. لن يبقى منها سوى صورة الشكل، أما الشذى فقد امتصته جيوب أنفك واندفاعك وانتهى.

الآن..

علم مرافقه أن سؤاله قد أُجيب عليه. سوف يمضي بعد أن يشارك صاحبنا وحُتاتته القهوة، على الطاولة ذاتها خلف الزجاج المموج. سيمضي إلى عالمه الذي اختاره ورضي به.

نعم..

استأذنه. لا حاجة للاستئذان. المياه تعرف مجاريها دون تلعثم، وما بقي إلا قليل من الطريق، تتخللهما محطتان للعم «علام» و«مصطفى»، ثم يكونان عاريان من أي مجاملة أو تحفظ، حيث لا حاجة لأية لغة.

قالت «حتى» لحظتها: إن الأمطار، وقتما تسقط في مواسمها، لا تصقل الطبيعة عند سطوع الشمس، بل تغسلها من دواخلها.

وقالت: لا شيء أعذب وأمرّ من الجمرة حين يصب عليها الماء.

وقالت: الليل لا يخشى الساري.

وقالت: الظلال تتبع الشجر، والرياح لا تعلق بالأغصان.

وقالت: الخيل والويل والحبر والأقلام، ودفء الغابات، ونشيج الجداول، وبطاقات السفر، ورماد السجائر وعيون البقر الصافيات،

وأنهار الليل، وأوراق الرعد، والظمأ المتيبس في الحناجر، والوله الذي لا تروضه المواعيد، ورقائق الأوراق المسطرة بأنخاب الشعر و..

ولم تنطق في كل أقوالها بكلمة، ولم تحرك لسانها بغير ما يقذف النفس والهمهة، لحظة إذ يدور ما يدور من تقاسم الالتحام بين عاشقين.

أما صاحبنا، فقد غنى صدره بموال حادي القوافل الضاربة في السفر:

«أصيح بالعالم لا أحد

يستغفر الله على ربابة الجسد

إلا أصابعي التي أطفأتها.. فصَرَخت:

يا سيدي بعَد، يا سيدي بعَد»

قضي الأمر الذي فيه ما فيه.

** ** **

صاحبنا يبدو منشغلاً بتثبيت نظارته، يحك رأس أنفه، ينظر إلى الجهاز.. لا زال يمنح الهدوء والانشغال المصطنع أطيافاً منشورية من «موزارت»، تحمل صاحبنا على بساط صغير، يكفي لأن يلملمه ككفن بلا ألوان ولا نقوش، إلى قمة جبل في قريته الجنوبية البعيدة البعيدة، حيث تمنح طيور الحجل صغيرها، على حافة المصب المستند إلى سفحه.. هناك شيء ضخم أكبر من كل التصورات الطفولية، يصنع ضخامته المواجهة للنافذة الشرقية من بيتهم الصخري، لا تقاس

طلعة الشمس إلا من فوق حلمته البارزة العالية المائلة، وعند قشرته السفحية التي تتلمّس تحت جريان الماء، يسمع رقيقاً ممدوداً لصوت صبيّة على أعتاب الرشد، تجمع «الحبق» والعشب المندى، وتغني.. تغني بقصيدة شعبية تتناولها ألسنة المزارعين في الوديان، فتعيد لحنها:

«أبوكِ يا صَيـد يرعى الجِرّ وأعطافه

قد له سنة يقتطع من سِدْر في بيْده))»

....

خاطر ورد، وخاطر شرد، وبينهما جزء على المائة من الدقيقة ... لا خلاف ... وقفت «حتى» كأنضر شجرة، فستانها الفيروزي الشبيه بسفحة من ماء وسط البحر. رقبتها الصدفية التي سرقت لونها من ساحة الصدر، ومنحته على استحياء لوجهها الكمثري الممتلئ.. شعرها القصير الململوم. وقفت تبتسم لمحت صاحبنا ينظر إلى مكان قدميه الهاطلتين من على حافة السرير، ويسرح مع «موزارت».

وقفت بالضبط بين عينيه وابتسمت بصمت !.

بصمت !

ما العجيب.. كل عضو فيها يتكلم دون صوت أو لسان. يا للعذاب. لو فتح معها أي فتحة في شأن لا شأن له بالقلب وشؤونه، لانفكت ربْطة لسانها، لكن، من يستطيع أن يحاذر فيض القول الطافح في دمه ؟ !.

(هيا..

«اخرجي الآن من دمي»

اخرجي يا «حتى»، فقد أقسمت مراراً أن ألفظ مآثرك في شرايين شوقي وخيلائي. ألم تتغذى من عذابي وتوقي وأحلامي ؟! ألم تدركي بعد، وبعد، أنني ممتهن بحبك إلى سقف طموحاتي ؟! ليس مهماً أن تدركي، وليس مهماً ألا تدركي. ليس مهماً.. المهم، كيف أجمع الآن كل اللغات، وكل همس المحبين.. لأبصم بها كبصمة البنان الذي لا يشبه غيره، على جمر كرَزَكِ المتحدي ؟!)

أراح صاحبنا ملامس يديه على وجهها. تمنى لو تبقى قسماته في يديه، ليس في قلبه فقط. للحظة الآن حرمة متميزة، لا يجوز لأي مشروع ذهني أن يتدخل، فيخلط غث الأمور بسمينها. منطقة دكتاتورية اللحظة، وماذا بعد اللذة القصيرة إلا الألم ؟! الألم.. النهاية، الألم

البداية، ثم الاستمرارية، فالنقطة الحالمة الفاصلة الجحيمية القاتلة و.. تبدأ الدائرة.

تذكر كالهاتف البعيد قول العم «أبو مسعد»، في فندق الديك، قبل سنة وأربعة شهور، وأيام وساعات لا يضبط حسابها الدقيق إلا من خلقها.. تذكر قوله:

النساء كالشجرة، بعضهن يحيا على مطر المواسم، وبعضهن يحيا من سقاية واحدة طول العمر، وبعض لا يحيا دون سقاية دائمة.

لماذا قال العم «أبو مسعد»: النساء.. لماذا لم يشمل بني الإنسان في نظريته ؟!.

ساءل صاحبنا نفسه. تذكر أنه سأله بالضبط عنهن. لكن «أبو

مسعد»أجابه من هنا، من عمق هذا المكان وظروف ناسه.. من المفهوم المحدد بتراكيب تاريخه وعوامل نشأته وعقائده وعاداته وأعرافه.

لو كان «أبو مسعد» في جزيرة بآخر المحيط، لقال كلاماً آخر لا ريب، غير أن صاحبنا لم يتعب كثيراً ولا قليلاً، فالمسألة ليست آينشتانية إلى هذا الحد: تحدث مع الأقوام بلغاتهم، ولا تنسَ نصيبك من تقويم ما عوّجَتْه خاطئات الأمور.

الآن..

داخل الغرفة المستطيلة، بمحتوياتها اللينة واللدنة، تكسرت ثنياتها، واختلفت أشكالها المعتادة.. عجنت المفارش والأغطية، والكائنين اللذين يقفان كعمودين مترعين بتأمل ما بعد اللحظة، لا يفصل بينهما مسافة سيف.

و.. رأت «حتى» أن تبدل «موزارت «بـ«فيروز».. لم يعلق، لعلها لاحظت أن الهدوء الثقيل قد أخذ يعومهما في استرجاع منفصل لا يجمع بينهما.. أحسنت على أي حال، وغَزَتْ صدريهما مسرة صغيرة. قررا بعد تفاوض قصير أن يشربا ما يشبه الصفو الملتهب.. مغامرة نادرة، سيكون لها موقع خصب في التو وفي الذاكرة. سألته، وهي تنصت قليلاً كما ينصت إلى نشرة الأخبار في التلفاز، (ولم يكن ليرغب في تشغيله.. لكن وراء هذا ما يبرره):

- البنتاجون ! ماذا يعني ؟

- وزارة الدفاع الأمريكية.

قالها باستعجال، كأنما استعد لجوابها سلفاً، لم يكن مهيئاً لأي

شيء آخر خارج الحالة الاحتفالية، التي اتفقا على أن يقيماها ويدعوا شخصيهما لحضورها. لم يكن ليرغب في أي حديث يخرج عن سوار الداخل.. لكن ماذا يفعل ؟، «حتى»تهرب من ذاتها حتى في أنقى الحالات.. تهربِ منها إليها.. إلى داخلها، ليس إلى أُذن صاحبنا، لذا خلقت سؤالاً يعلم أنه لا يهمها كثيراً.. لأنها، كأقل احتمال، تعرف جوابه. تريد أن تختلق أي طوب تعبئ به هيكل الوقت، وصاحبنا لا يجد مدخلاً للاعتراض، ألم تجعله أستاذها ومؤسس معلوماتها، ومصحح مفاهيمها التي تقول بمناسبة وبغيرها: إنها كانت «تفهم الحياة غلط»!.

تطلع إلى عينيها، وتمنى لو يقعرهما نقطة نقطة.. تمنى لو يحضنهما إلى الابد، ويتجول في غاباتهما.. قال باستفزاز سريع :

- سؤال آخر ؟.

- آه.. اسمع، مورفي ؟ (نطقت اسمه بنغمة سؤال)

- ثمرة طماطم ناضجة في طبق يفد إلى الشرق الأوسط، و.. بس.

- على فكرة.. إنت زعلان.

- يمكن.

- أعرف السبب ؟

- يا.. حبيبتي، نحن في جو آخر، ما لنا الآن، وما لزيد وعبيد؟!.

في مناسبات تتكرر، يتمنى صاحبنا لو أنها تسأل أي سؤال عن

حديثه الجاد معها، أو حتى عن البطيخ. الآن تجمعت الأسئلة في غير وقتها !.

لا خلاف.. يعرف أنها تضييع للوقت كي ينقضي خارج الحديث عن مشاغل القلب.

يا لعجب الإنسان، تمنى بكل جوارحه، بعد شوط من الوقت، لو أنه يغمض عينيه فتبلعه الدنيا. تمنى لو يقف لصقها قرب الباب. يقبلها حتى تجتذب وجهها من بين يديه.. تشد شعره من خلف الرقبة، وكالعادة تنظر في وجهه ونظارته، نظرتها الطويلة و.. تخرج برأس مرفوع كالفرس. يتمنى لو تخرج الآن، دون مقدمات. ليقل المفضلون ما طاب لهم أو كُره من القول. أليس صاحبنا هو المعذب الوحيد في هذا الكون بها ؟! أليس هو الذي سيشتاق إليها

شوق الجفاف إلى الماء ؟!. ألن تخرج وقلبه في يدها أو ما ملكت يمينها من زهد الدنيا ؟.

تمنى صاحبنا في الفينة ذاتها، لو أنها تبقى جواره أبداً لا تفارقه في أحلامه ومنامه، وفجره ومغربه.. أن تبقى بقاءً حياً نابضاً بالعظم واللحم والحس، لا بقاء الوهم والخيال والصورة، زاد المشتاق البعيد، وقت إذ «يقولون ليلى في العراق..».

تمنى، وتمنى.. كلا الأمنيتين في لحظة حضوره معها حضوراً معززاً مدعماً بأوثق ما يجمع بين محبين. «والله على ما نقول شهيد»!.

يستطيع المرء أن يفنى طاقة عمره في الجمع بين المتناقضات، بينه وبين ذاته وبينه وبين الآخرين، دون أن يرى في هذا أن أي شاغل يستحق الاهتمام في قوانين وإيقاع الحياة. صاحبنا مسكون بالقلق

والجمال والحب، وبالرغبات والأماني، والسعي منقاداً خلف الصعاب. ألم تكن «حتى» صعبة منذ أن تعرف إليها؟ صعبة في كل شأن: مغلقة مبهمة، لا تلفت نظرها البيارق، ولا توقفها النداءات والطبول، تستطيع أن تشق صفوف المارشات بثقة زرادشتية، دون أن يهتز لها طرف.. أمامها نقطة بعيدة غير مرئية.. تذهب نحوها في طريق واحد، تختاره بعد تردد وكفى؟!!

ليس يعنيها سواه، ولا يوقفها أي مغر، أو صعب. لا تحب قشور الأشياء أو بريقها.. تكره سخافات الأمور.

امرأة صعبة، وصاحبنا تجتذبه فعاليات هذا الموصوف الأنثوي النادر. هو لا يفكر البتة في فرض ذاته على أحد، ولو كان في دور الممثل المنتقم.. لا يزوق انفعالاته.. لا يطرب لمزامير الوصف المرمري لأجل مرمريته. لقد قال: إن طموحه أكبر من إمكانيات قدومه، في عين الحال لا يحب العسكرية في التناول، «يهجم ولو كان حمله من ريش» وقتما يرى هدفه صعباً.. صعباً لكن غير غامض. لكنه وجد نفسه التي جرت عادتها على السعي وراء كسر الصعاب، وجد، بيقين لا رجعة فيه، أن «حتى» غامضة حدّ الإبهام.. صعوبة مغلقة..حب يشوبه كره.

صاحبنا لا يعرف التستر الفج في الأشياء.. صريح، إلى حافة الكشف، في شؤون ذاته وما يعنيه، وخجلاً حدّ التضحية بالنفس مقابل ألا يتعدى على حق الآخرين، أو مشاعرهم.

لا يدري، أو يدري بعض الدراية لماذا: يحبها أكثر مما يحبها؟.

يا لعجب الإنسان!.

** ** **

من طبع صاحبنا أنه يأخذ بظواهر الرفض والقبول، فلا يجادل بأكبر من حجم قناعته. لا يحب التكرار في التشبث والرجاء، ومع إدراكه الكامل بأن هذا السبيل قد يأتي بما لا يتوقعه، فقد تغدو الأمور على راحة ما يريد في أحايين كثيرة، إلا أن «الطبع يغلب التطبع»، فهو ذو حدّ محدود في شأن مثل: «لا..لازم يكون، ومعليش من أجل كذا» وما شابه.

«حتى» تأخذ بما يقول، ولا تستطيع أن تتمرد على صدقه في الحرص عليها، ولكن، أنّى للإنسان أن ينتزع من دواخله مكتسبات النشأة، و «تابو» الوصاية الهرمة، التي تؤكد لا حقيقة أن المصلحة الأنانية تطفو فوق المصداقية ؟:

فلان يقول كذا، من أجل أن يحصل منك على كذا.

فلان يغريك بكيت وكيت، لأنه يطمع في كيت.

«حتى» تعلم أن أبا زيد لا يغرر بفرسه، فيقدم بيد قطعة السكّر، وبالأخرى يقبض على عصا. (هي ليست فرساً وهو لَيس بسائس).

موجز الأمر..

أنها نكست برأسها نحو موضع قدميها العاريتين. قطب الصدف الغارق بين حاجبيها، واحتلها الصمت.. ما انفكت تعود إلى حالتها:

- ما بك يا «حتى» ؟.

- .....

- أتشتكين من شيء ؟.

- ردي، يا «حتى»!.

- ......

- طيب. «قولي حاجة»!.

- ......

- ... «أي حاجة»!.

- رأسي يوجعني. (هزت رأسها قبلاً.. فماج قليلاً شعرها القصير اليانع).

- أمر بسيط.. أترغبين في قرصين من المسّكن ؟

- لا.. معي، في الشنطة. (صمتت كالخشب) !.

ما الذي يمنعها من أن تمد أصابعها إلى حقيبة يدها، لتتناول المسكن ؟، الحقيبة إلى جانب مقعدك، نائمة على حافة السرير كقطة ولود عمياء.

ربما كانت تتلذذ بهذا الاجترار في المساءلة. هكذا جاء في بال صاحبنا. قال لذاته المتهادئة كماء النهر العريض، ليدعها. الوجع يكون رحمة أحياناً.. لم يعد يلحّ. مدة التواطؤ على حساب الضغط انتهت.. ليؤلمها عظم رأسها إلى أن ينفك.

الكأس الشُهبية نصف ملأى. منفضة السجائر تحوي في عمق صحنها أعقاباً قليلة. «فيروز» تغني كوصفة الدواء:

«من عز النوم بتسرقني..»

التلفاز المبارك الذي لا حاجة إليه.. صورة بلا صوت. السرير

مرتّب كما لو أن جندياً احتلم بصاحبته وآثر أن يخفي حلمه اللذيذ في ثنايا غطائه المرتب، عند الفجر.

أثاث الغرفة الفندقية المحدود، الكتب.. الملابس المهملة، الأحذية والجوارب.. ربطات العنق.. زجاجة العطر.. الستارة المسدلة.. باب دورة المياه المفتوح.. سلك الهاتف المنزوع.. المرآة الصقيلة.. الضوء الغباري، الذي لا يلذّ لصاحبنا إطفاؤه ليلاً أو نهاراً، أشياء تشهد أن الحبيبين المتقابلين قرب الطاولة الآن، كانا على خير ما يتمنى البعيدون اللاهثون في الالتحام.

«حتى» نظرت إلى وجه صاحبنا، الذي تعرف سحنة الجدية فيه.. قالت: إنها ترغب في الانصراف، ثم أسبغت كرماً آخر في القول.. أضافت: إنها تأخرت كثيراً، وإن الوقت قد سرقها.

كانت تنتظر أن ينفح بمحاولة وأخرى، لكي تؤجل تنفيذ قرارها المباغت، لكنه لم يفعل.

دخلت دورة المياه، أغلقت عليها بالمفتاح. بعد دقيقة أو يزيد قليلاً، خرجت.. مشت خفيفة إليه و.. جلست. كانت أقرب إلى الاستبشار. (لعله عصب القولون).. «هاه، كل يرى الناس بعين طبعه».

مدت يدها، ووضعت بين شفتيها بصمة خفيفة صامتة من الشهب (لم تعد الشهب شهباً.. لن تغدو شهباً دون زلزلة الضلوع).

كان على صاحبنا أن يقول شيئاً.. أي شيء، قال:

- لعل الصداع، خف ؟.

- شوية.

- دعوتي..

- أعرف أنك صادق. (لا صداع، ولا دعاء، ولا يحزنون).

كم يحتاج صاحبنا إلى بشر لم يولدوا في أقمطة المجاملات. المرء يلاطف، فيجامل، فيكذب.. يشك أنه يكذب. يقول «كذبة بيضاء»، فيكذب حتى يصدق كذبته. لو بقي نقياً صادقاً واضحاً، لعّيره أقرب الناس إلى قلبه: صدّاق.

«صدّاق» في مصطلحهم - رحمكم الله - تعني: أبله.

من يرغب في أن يكون أمام الملأ بهذا العيب ؟ إن ضريبتها عظيمة، مؤلمة كالإتاوة على «المسكين»، الذي لا يجد قوت يومه. الفقير يعلوه بدرجة طبقية محددة، لا تذوب بينهما الحدود، فهذا حدّه، وذاك حدّه كذا، لكنهم مع «ابن السبيل» في حظيرة واحدة، تسمى باسم إحدى طبقاتها: حظيرة الفقراء.

أما «الأغنياء» - وسّع الله علينا وعليكم في العلم - فحظيرتهم تسمى «وادي الأثرياء»، وهو واد ترتع فيه الأيائل والغزلان لا تبول إلا المسك، ولا تتنفس من تحتً أذنابها إلا العبير وآه.. يا عيون الظباء، ويا أعواد البان، ويا.. ،ويا..

ويا لصاحبنا، الذي يرتق مجاملاته، لكي لا يغدو أبله حتى أمام عيني «حتى».

القصد، يا «شهريار»، الذي طلع على محدثته الصباح، أن «حتى» بان على قسمات وجهها الاستبشار، وطاب لها أن تشارك محبها الجلسة الاحتفالية الصغيرة، فما كان منه إلا أن وازن في الأمور، ورفع الزجاج، وقرع الزجاج بالزجاج، ثم أغمض عينيه

على مضض وجرع مرّاً، مرارة الخليل الغامض العجيب، حين يناقله مزاجه بين الأصابع كالعصا المتطوحة.

فأين ذهب قرار الانصراف ؟ !!.

لقد احتار، فهو لا يدري إن كان في «حظيرة الفقراء» أم في «وادي الأغنياء».

** ** **

اسمع يا أخ.. عامللي فيها أبو زيد! مساء يوم الأحد، الساعة السادسة.. كنت في الغرفة رقم ٣٠٥ بالفندق، من الذي كان معك؟.

- ......

- هاآآ ....ه، جينا في وجع الراس ؛ أبغي كلام.. مش سكوت، أنا أجاوبك، يمكن

إنت محرج: المرة اللي من إياهم، يوم كانت معك ليلة خسوف القمر يا.. ساكت.

(مَرَة ! مرة في عينك).

- مين إياهم ؟.

- أنا اللي، أسألك.. جاوب.

- ليست من إياهم.

- كانت معك، لوحدكم في الغرفة.

- .....

(نسيت أدعوك معنا).

- أشوفك سكتْ.. يعني معترف.

(لا..خائف منك!).

- نعم..كنا مع بعضينا.

- ما شاء الله، لغتك فصيحة.. ما علينا، يعني كنتم لوحدكم في الغرفة ؟، أيش كنتم تسوون ؟ (أخذت شفتاه آخر أفقهما، و.. و.. ون).

- كنا نتناجى.. نتهامس.. نتشاجن.. نتلاهف، مثلما يفعل أي حبيبين في الدنيا.

- احترم ملافظك، وحاسب على كلامك.. الناس محترمين، مش كلهم يعملون عملتك، يا.. منحرف الضمير.

- (أنا.. يا فاعل القذارات ؟ !، هل النساء جواري، يا.. قاتل!).

- ....

- طبعاً، منحط (نبشت «منحط» كل مسام بدنه، لكنه سيقبض على لسانه بأكبر من احتماله، كيف يرد أو، لا يرد).

- ..شكراً.

- عفواً.. يا أخ خ، بس إنت برضه منحط.

(معك حق.. لعلي سودت وجه التاريخ.. علم من بحره إلى بره، لا يجد فيه المرء المطمئن مكاناً لأليفين !! «منحط.. من.. حط

«تتنفس كبتك وأحقاد هزائمك ! معك حق).

- هيا قم. (يُقفل التحقيق حتى يطيب مزاجي، أحتاج شهراً من الزمان، أشرب فيه خمسمائة فنجان من القهوة).

ليترك المحقق صاحبنا قرب «حتى» يتقاسمان بعض ولههما، بعد أن تلاحما، فتنافرا، فتآلفا ألفة صافية، لو أنهما تهيّئا لها، فلربما عكره الصمت المزاجي، أو عذر الوقت كما ادعت، أو منغصات، لا يحق أن تتصادم مع أمل وسفرة صاحبنا.

لقد جاءت بعفوية طيبة وصادقة ،لكنها تبقى في تصنيف الصدفة، الصدفة المزاجية، تلك التي اجتمعنا فيها من ولادة اللحظة، وعلى صاحبنا ألا يقيس بها مجريات الآتيات، في ميزان معرفة الأمور، فمقياس من صنف: (لحظتها كان الوئام متناسقاً).. لا يعني إلا أنه (لحظتها) فليذهب مع اللحظة.. إنهما الآن أبناء ثوانيها، ليس إلا.

** ** **

بلغ صاحبنا مع حتاته مبلغ الثمالة، الثمالة التي تمثل القلب والعين لحظة، ثم تغيب، وتذهب بعيداً في تأمل داخلي خارجي.

ثمالة عجيبة كأنما تعابث بأمواجها سفينة صغيرة دون مجدافين، فلا هو بمسيطر على الدفة، ولا هي بقابضة على ما يثير الموج. ليس غريباً على الصاحب، فمتى كان راكب البحر بقادر على قبض الهواء، وفي عين الآن ؟ ! متى كان يخشى من الغرق ؟ !

«حتى»لو ناظرها مراقب، لظن أنها بقلب كالمحار، ومرة كالصدفة، وأخرى كالوردة الوالهة للظل.. يا لعجبها !

تمد يدها إلى يده، فتسبغها بملمسها، وحين يقرّبها من اللثم

المتريث، تنصهر بأنحائها الشاردة والواردة، وهو لا يأمن للحظة، وحينا يصارع أوهامه وقلقه.. يجهد قناعته بأن ليس للحظة إلا أن تقطف بيناعتها، فليس على الإنسان إلا ما رأى.

ألم يكن يأخذ بقول جده القروي في أحوال الحياة:

«خذ ما ترى واترك ما توعد» ولكن يا جد، هل جربت الهوى بغير وعود؟

الهوى يا جد، يغرب حفيدك من الجبل إلى الصحراء، إلى ماء النهر، وهو لا يراهن على فرس بلا لجام، فالطريق هي التي تتعب من مشاويره، وهذا الذي يتأجج في القلب ليس له دستور و لا مواد قانونية، ومحكمته وقاعاته تكمن في الوعود.

اللحظة..

فينة من الزمن، تغمض فيها فاترات العيون، وتشتد في ذوب صليلها سيوف أبطال الفرسان.

اللحظة..

فينة من الزمن، تغمض فيها فاترات العيون، وتشتد في ذوب صليلها سيوف أبطال الفرسان.

اللحظة..

قطعة حامية كالمعدن.. ستبرد شعرة شعرة، و..

استعادت «حتى» تصلبها.. علقت حقيبة يدها على كتفها اليسرى. مشت خطوات نحو الباب والتفتت. قام صاحبنا إليها متعثراً، نادياً ألا يجاملها بأي نوع من باغتات الكلام، فلا معنى – اللحظة – لأي

حرف يسيل من الفم أو اللسان.

ألقت «حتى» برقبتها، التي أثقلها رأسها المعبأ بالغابات والأمطار ودوران الكواكب، على كتفه، ونشجت بخفوت جاء كالمطر الصيفي كاملاً في أُذنه حتى ارتوت، ثم... وكان عليه أن يتزود بما سوف يقتات به في قوابل الأيام. جمحت في الممر الطويل قاصدة باب المصعد، كأنما قد تهيأ لإنزالها.

قليلاً يعود صاحبنا، تاركاً باب غرفته مفتوحاً، إلى الشرفة المطلة نحو الشارع الصغير.. تحت عينيه سيرقب مشيتها إلى أن تغيب، فهل يلومه جده لو أنه ودع «حتى»دون وعود.. دون وداع ! دون إلا:

آمال تُسحب من صوّان آتيات الأيام، وقت إذْ تكون عظمة الإنسان أقوى من الآمال والأحلام، وأقوى من تصور الوجوه الحبيبة حينما تذوّق وحدته القاسية في الظلام ؟!

١٦ / ١٠ / ١٩٩٣م

جدة

أرشح «عبد العزيز المشري» للعالمية

إننا إذا أردنا أن نصل إلى العالمية فلا بد أن نقدم للغرب شكلاً جديداً لم يعرفه من قبل، وهذا لا يتحقق بالطبع بتقليد « ألف ليلة وليلة»... ولحسن الحظ فإن ثمة أعمالاً عربية «ما بعد حداثية» أصيلة ليس فيها تقليد «لألف ليلة وليلة»، وليس فيها تقليد للآتي من الغرب وخاصة تيار «ما بعد الحداثة»، وإنما تطوير للاثنين معاً، وهو في رأيي تطوير عفوي لا مقصود، نتج عن الصدق في وصف البيئة المحلية والمحافظة على تقاليدها في النص الشعبي الشفهي، ومن هذه الأعمال، بعض أعمال الطيب صالح... وأعمال يحيى الطاهر عبد الله، و«الوسمية»، ولهذا فإنني في نهاية المقال أرشح «المشري» للعالمية.

عابد خزندار
(جريدة الرياض - ملحق ثقافة اليوم
١٤ إبريل ١٩٨٨م)

«الكتابة المشرية»

بدأ المشري كغيره من الكتاب الذي يعتقدون أن الثقافة والفن والجمال في ما يقرأ الإنسان ويحفظ عن الكتب لا في ما يعيشه ويختبره بكل حدوسه وجوارحه.

لكن هذا الكاتب البسيط والأصيل سريعاً ما تحول وحوّل كتابته إلى نص الحياة المفتوح على حكايات ومعان لا تحد وتتجدد باستمرار، مثلها مثل لحظات الحياة ذاتها.. وجّهته حكمة الفلاح وحدس الفنان المبدع إلى تجربة كتابة، سريعاً ما تحولت إلى تجربة، تعلن حضوره المتميز دونما صخب أو افتعال كما تعلن اختلافها بإصرار عنيد وجميل. هكذا أصبحت الكتابة المشرية نموذجاً لأية تجربة إبداعية تستمد قيمها الجمالية والفكرية من أعمال تجربة وجودية .. تاريخية تضرب بجذورها عمقاً في ذاكرة الإنسان وذاكرة المكان وفي ذاكرة اللغة.

د. معجب الزهراني - تجربة الكتابة - الحياة عند عبد العزيز مشري
(جريدة البلاد - العدد ١٥١١٨ ، في ١٧ /نوفمبر/١٩٩٧م)

